بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة

رأيت تخليدا لاسم الشهرستانى ، وإحياء لذكره ، وإتماما لعمله أن ألحق كتابه بذيل أدرس فيه من الملل والنحل مافات المؤلف ذكره من ديانات القدماء ، وما جد بعد عصره . وقد خصصت الباب الأخير من هذا الذيل لدراسة أفكار المسلمين المعاصرين وآرائهم .

إن الفرق الإسلامية التى تحدّث عنها الشهرستانى قد اختفت كلها من الوجود ماعدا الإسماعيلية ، والاثنى عشرية ، والدرزية ، والنصيرية ، والإباضية . وحتى هذه الفرق قد فقدت أهميتها .

ولا شك فى أن العلم الحديث سيعمل على إزالة الاختلافات ، وتقريب الأفكار بين المسلمين ، وبذلك تتوحد كلمتهم ، ويقوى أمرهم .

وبناء على هذا فقد درست المسلمين المعاصرين على أساس اختلافهم فى قبول مظاهر الحضارة الحديثة ، وانقسامهم إلى فريق المحافظين ، وفريق المجددين ، وما نشب بين الفريقين من جدال ونقاش ، وتمسك المحافظين بأحكام الفقه الإسلامى كما جاء عن القدماء ، ونزوع المجددين إلى فتح باب الاجتهاد ، وتطرف بعض هؤلاء فى زعمهم عدم صلاحية الفقه الإسلامى للعصر الحاضر .

ودرست الحركات الفكرية الإسلامية من حيث اتصالها بالدين ، وتغلب نزعة التجديد خضوعا لمقتضيات العصر الحاضر ، إذ لم يكن فى وسع المسلمين أن يقفوا فى شئونهم الاقتصادية عند أقوال الفقهاء القدماء ، ويحتكموا إلى مذاهبهم فى هذه الشئون .

ودرست الحركات التى تطرّف فيها بعض المسلمين تطرفا جعلهم يتأرجحون بين الكفر والإيمان ، كما درست الحركات الإلحادية بين المسلمين المعاصرين ، وما ترتب عليها من رد فعل انتهى بقيام الجمعيات الدينية ، واتساع حركة التأليف الدينى اتساعا عظيما ، ردا لهجوم الملحدين ، ودفاعا عن الإسلام ، وشرحا لتعاليمه ، وتفسيرا جديدا للقرآن الكريم ، والله الموفق والمعين .

القاهرة فى { ٩ نوفمبر سنة ١٩٦١
٣٠ جمادى الأولى سنة ١٣٨١

محمد سيد كيلانى

الباب الأول

فيما فات الشهرستانى ذكره من أرباب الديانات القديمة

الفصل الأول

قدماء المصريين[1]

لم يكن المصريون القدماء فى أول أمرهم يعبدون إلها واحدا . بل كان لـكل مدينة إله يرعاها ويحميها . ثم ارتقت دياناتهم فاشتركوا جميعا فى تقديس بعض المعبودات ، كإله الحرب ، وإله الخصب والنماء ، وإله الحب والفرح ، وإله القمر ، وإله الشمس . وبعض هذه الآلهة ذكور ، وبعضها إناث .

واعتقدوا أن الإله المحلى يظهر لعباده فى شكل واضح جلىّ . فـكما أن روح الإنسان تأوى جسده الظاهر ، كذلك يتخذ الإله له مأوى خاصا يكون فيه مَظْهَرًا له . وقد جرت العادة أن يتخذ الإله سكنا له الأحجار والعمد والحيوانات ، وكان الأكثر شيوعا أن يتصوروا الإله فى هيئة حيوان . فـكان « سُبْك » إله الماء بجهة الفيوم يظهر فى شكل تمساح و « خُنُمُ » معبود الشلال فى شكل تيس . و « آمون » إله طيبة فى شكل كبش بقرون ملتوية تغطى أذنيه ، وإله الشمس « حوريس » فى شكل صقر .

ولما تقدمت دياناتهم إلى الأمام ، أخذوا يمثلون آلهتهم فى شكل إنسان ، ورأسه رأس

---

(١) ديانة قدماء المصريين ترجمة الدكتور سليم حسن ، ط المعارف سنة ١٩٢٢ .

الحيوان الذى كان يظهر فى هيئته ، أما ملابسه فهى ملابس البحارة المصريين ، قميص مدلّى ، خلفه ذيل حيوان ، وبيديه سيف وصولجان ، كدليل على القوة والمضاء ، وجعلوا للإله زوجة وولدا ، وعبدوا هذا الثالوث ، وأطلقوا على الحجرة التى يقيم بها تمثال الإله اسم « قدس الأقداس » .

* * *

ولما صارت البلاد إقليمين عظيمين ، أصبح للوجه البحرى إله واحد اسمه «حوريس» وللوجه القبلى إله اسمه « ست » .

وادّعى الفراعنة أنهم خلفاء الآلهة على الأرض ، وزعموا أنهم تقمصوا أرواحهم .

ولما توحد الوجهان البحرى والقبلى وصارا دولة واحدة انتشرت بين المصريين عبادة الإله « أزوريس » الذى كان فى مبدإ أمره إلها محليا يعبد فى بعض نواحى الوجه البحرى .

وعبدوا النيل الذى يهب مصر الحياة ، وكان يمثل عندهم فى شكل ذكر وأنثى فى آن واحد ، فله من الأنثى ثدياها ، ومن الذكر لحية طويلة تكتنف وجهه . ولباسه لباس بحار مصرى ، كما عبدوا بعض الأجرام السماوية ، وبعضهم مثل إله الشمس فى شكل صقر ، وبعضهم مثله فى شكل جعران ، وكما أن الجعران يرى عادة فى النهار وهو يدحرج أمامه كرة صغيرة تحتوى على بويضاته ، كذلك يرى إله الشمس فى خلال النهار وهو يدحرج أمامه فى السماء كرة الشمس . وهناك طائفة كانت تعتقد أنه فى كل صباح تنبت فى وسط الماء زهرة زنبق تشتمل على طفل صغير ، هو إله الشمس ، جالسا فى نَوْرها .

وإله الشمس يقيمون له عمودا من الحجر داخل المعبد يصلون عنده ليوصل العبادة إلى الإله الأعظم ، وبمرور الزمن أخذ هذا العمود شكلا منتظما مناسبا ، وعرف باسم « المسلة » وهى عمود مربع الشكل ينتهى بقمة على شكل هرم صغير .

* * *

وكان « رع » إله الشمس معتبرا فى وقت من الأوقات الإله الأعظم الذى يسيطر على بنى البشر جميعاً .

ولما انتقلت عاصمة الدولة إلى طيبة عبد المصريون الإله « آمون رع » ورفعوا منزلته فوق كل الآلهة ، وأقاموا له المعابد فى جميع أنحاء البلاد ، وبذلك صار هذا الإله معبوداً قوميا للمصريين أجمعين ، وتركوا عبادة إله الشمس .

إلا أن كهنة عين شمس أخذوا ينشرون أفكارا ضد ألوهية «آمون رع» ويدعون إلى عبادة « إله الشمس » فلما تولى « أمنحتب » الرابع عشر البلاد ، وكان فيما يبدو قد تلقى ثقافته على أيدى كهنة عين شمس ، عمل على نشر العقيدة الخاصة بتقديس إله الشمس فأمر بتشييد معبد فخم لهذا الإله ملاصق لمعبد آمون . واتخذ له تمثالا على شكل إنسان له رأس باز ، ويتوج رأسه قرص الشمس ، يحيط به ثعبان فاتك ، وأطلق عليه اسم « آتون » ومعناه قرص الشمس .

ثم أمر « أمنحتب » بأن تكون عبادة « آتون » الدين الرسمى للدولة ، وطلب من المصريين أن يعبدوا هذا الإله الأحد ويتركوا ماسواه من الآلهة ، وعلى هذا أغلقت معابد الآلهة الأخرى وحطمت تماثيلها ، ومحيت صورها ، وطمست أسماؤها ، وتعرّض أتباع « آمون » للاضطهاد الشديد ، وصودر اسمه ، ولم يسمح بذكره فى أى مكان حتى أن كل فرد دخل فى اسمه كان لزاما عليه أن يتخذ لنفسه اسما جديدا ، وأول من فعل ذلك الملك نفسه فإنه تبرأ من اسمه « أمنحتب » أى : آمون راض ، وتسمى باسم « أخناتون » أى : روح ضوء الشمس .

ومن التسبيحات التى وضعت للإله الجديد :

جميل نورك على أفق السماء .

أنت يامن هو الشمس الحية التى وجدت قبل كل شىء .

حينما تشرق على الأفق الشرقى تملأ كل الأرض بجمالك .

أنت جميل وعظيم ، وساطع ومشرق على كل الأرض .
أشعتك تكتنف كل العالم ، وكل ما هو من صنعك .

ثم تبين هذه التسبيحة كيف أن الناس حينما تختفى الشمس ليلا وتنزل تحت الأفق الغربى ؛ يغشاهم النعاس ، وأن الحيوان المفترس عدو الإنسان كالسباع والحشرات المؤذية كالثعابين تخرج من مخابئها ، ولكن ما أبعد الفرق بين هذه الحالة التى تكون الشمس فيها غائبة عن الناس ، وبين حالة ظهورها . تقول التسبيحة :

« حينما تكون الأرض مضيئة :

عندما تشرق أنت على الأفق ، وترسل أشعتك فعندئذ يشمل السرور العالم ، ويستيقظ الناس ويقفون على أرجلهم لأنك أيقظتهم ، فيغسلون أبدانهم ويرتدون ملابسهم ويرفعون أيديهم تضرعا وابتهالا حينما تشرق .

ووقتئذ تكون كل الحيوانات آمنة مطمئنة فى مراعيها .

وتخضرّ الأشجار والأعشاب ، وتطير العصافير من أوكارها ، وأجنحتها تثنى عليك.

وتمرح الأغنام فى مراعيها ، وكذلك تحيا كل الحشرات والطيور حينما تسطع بأشعتك عليها » .

والعقيدة الجديدة فى هذا الدين هى أن « آتون » هو الخالق والمنظم والحاكم للعالم أجمع ، لا لمصر وحدها .

وكان هذا الدين يرمى إلى القضاء على فكرة تعدد الآلهة قضاء مبرما ، والاستعاضة عنها بمذهب توحيد ظاهر لا يشوبه شىء سوى أنه مادى .

ومن النقط الهامة فى الدين الجديد أنه قضى على كل مظهر يمثل الإله فى شكل إنسان ، ومحا التماثيل والصور التى صنعت للإله ، وأصبحت العبادة مقصورة على الشمس الظاهرة المضيئة .

ولكن أخناتون لم يقف عند هذا الحد ، بل ادّعى الألوهية .

* * *

وبعد وفاة أخناتون قامت حركة ترمى إلى إعادة الديانة القديمة : ديانة آمون . فحاول خلفه أن يقاوم تلك الحركة فكان نصيبه أن عزل . فجاء بعده حميه « توت عنخ آمون » فرأى بثاقب بصره أن خير وسيلة لتسكين الخواطر والمحافظة على عرشه أن يبادر بإلغاء ديانة « آتون » كديانة رسمية للدولة ، كما أعلن حرية العبادة ، واعتنق ديانة « آمون » وغير اسمه ؛ فبعد أن كان « توت عنخ آتون » تسمى باسم « توت عنخ آمون » ومعناه : تمثال آمون الحى ، ثم انتقل إلى طيبة .

وكان كهنة طيبة يصفون « آمون » بأنه الواحد الأحد الذى لا ثانى له . ولما عادت العاصمة إلى طيبة ، واستردت عبادة « آمون » مكانتها فرح كهنة طيبة ووضعوا تسبيحة طويلة فى تمجيد الإله « آمون » نذكر منها :

الحمد لك يا آمون رع ، أنت أيها الثور الذى يسكن عين الشمس .
يا إله الخورنق ، أنت أيها الواحد القديم فى السماء ، وأقدم الآلهة فى الأرض
يارب القانون ، ووالد الآلهة ؛ الذى خلق ما علا وانخفض .
والذى يفيض نورا على العالم ، والذى يقوم بسياحة موفقة فى السموات .
أنت أيها الملك « رع » المبارك . أيها المسيطر على العالم .
أنت ياغنيا فى قوته ، وممتلئا فى بطشه .
الحمد لك يا خالق الآلهة ، يارافع السموات ، وباسط الأرض .
يا إله الكل ، الذى خلق الأبدية . أنت الذى خلق كل شىء موجود .
أنت الذى ترزق الأسماك فى النهر ، والطيور تحت السماء .

قد نلمس فى هذه التسبيحة عقيدة التوحيد ، ولعل السر فى ذلك أنهم أرادوا أن يفرضوا عبادة « آمون رع » ويرفعوه إلى نفس المستوى الذى رفع إليه « آتون » من قبل .

* * *

وانتشرت فى عهد ملوك الأسرة التاسعة عشرة عبادة الإله « ست » وانتسب إليه عدد وفير من ملوك هذه الأسرة مثل سيتى .

وكانت هناك حيوانات تعبد على أنها آلهة فى ذاتها ، ولها معابد خاصة . فمن هذه الحيوانات العجل « منفيس » والعجل « أبيس » وقد زعموا أن العجل « أبيس » نشأ من قبضة نور نزلت من السماء فى رحم بقرة فحملته ثم وضعته ولم تلد بعده قط . ومن مميزات هذا العجل أنه أسود اللون ، مشوب بنقط بيضاء ، وعلى جبهته مثلث أبيض ، وفى جانبه الأيمن هلال ، وكان يغطى ظهره عادة برداء أحمر .

• • •

وفى عهد الإغريق دخلت إلى مصر عبادة الأبطال ، وكان لحكماء المصريين قبور يحج إليها المصريون ويقدسونها . فدخل هؤلاء الحكماء إبان العصر الإغريقى فى زمرة الآلهة ، ومن هؤلاء «أمنونس بن حابو» المهندس المعمارى البارع فى عهد أمنحتب الثالث أصبح يعتبر نصف إله ، و «أمحوتب» وكان مهندسا معماريا مشهورا فى عصر الملك زوسر من ملوك الأسرة الثالثة ، وقد ساد الاعتقاد أنه صاحب حكمة ودراية واسعة ولا سيا فى الطب الذى نبغ فيه ، فانتشرت عبادته فى طول البلاد ، وأضحى قبره قبلة لمن يطلبون الشفاء من أوجاعهم .

وقد تلاشت هذه المعبودات كلها حينما أدخل « بطليموس » الأول إلهه الجديد « سَرَبيس » باحتفال مهيب ، بعد أن نقله من ميناء « سينوب » على البحر الأسود ، وراجت عبادته رواجا مدهشا ، وصار إلها لجميع المصريين .

• • •

أما بالنسبة للحياة الأخرى فكانوا يعتقدون أن الإنسان سيحيا بعد الموت حياة أخرى تماثل الحياة الدنيا فى جميع أحوالها دون تغيير فى الشكل ، فيبقى الرجل والمرأة والشيخ

والطفل فى الحياة الأخرى كما كانوا في الحياة الأولى . وموطنهم الجبانة ومنزلهم القبر . وهناك يسيطر الرجل على زوجته وأولاده، ويخدمه خدم من الذكور والإناث. وكذلك يتاح له فى حياته الأخرى كل ما كان يجلب له الفرح والسرور فى دنياه.ومن الضرورى له قبل كل شيء أن يأكل ويشرب . فحياته الأخرى موقوفة على ذلك كما توقفت عليه حياته الأولى . وبدونه يعانى آلام الجوع ، وحرقة العطش .

والواجب على أهل الميت أن يقدموا له كل ما يحتاج إليه ، وكان أهل اليسار منهم يحبسون المال على قبورهم ، ويرتبون الكهنة لأداء القرابين اللازمة لها .

وكان المصرى يعتقد أن الميت لا يبقى سجينا فى قبره المظلم بل يكون حرا أثناء النهار يغادر قبره الضيق ويتجول كيف شاء على الأرض ، ولكن كان عليه أن يأخذ حذره مخافة أن ينقضّ عليه أعداؤه المؤذون من الأفاعى السامة والعقارب والتماسيح ، فلذلك كان يجب عليه أن يتسلح بالتعاويذ السحرية التى تقيه شر هذه الأعداء .

الفصل الثانى

الهنود

١ — الديانة الهندوسية أو البرهمية

فى بلاد الهند[1] أديان كثيرة ، ولكن الهندوسية هى دين الغالبية ، وليس لها مؤسس يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها ، وهذه الديانة تجمع بين الوثنية الساذجة ، والآراء الفلسفية السامية ، والزهد الصادق ، تجد كل هذا ممتزجا بعضه ببعض حتى يتعذر الإلمام بالدين كله جملة واحدة .

(١) أديان العالم الكبرى ، ترجمه عن الإنجليزية حبيب سعيد .

وقد دخلت الهندوسية إلى الهند مع الآريين الذين نزحوا إلى الأقاليم الغربية من تلك البلاد حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م وكان لهم أناشيد دينية مقدسة يجمعها كتاب اسمه : « الفيدا » وآلهتهم هى الطبيعية ، والسماء ، وإله المطر ، وإله النار وما شاكلها .

ويظهر التوحيد فى بعض أناشيدهم الدينية ، ففى كتاب « الفيدا » ما ترجمته : « إننى أنا الله ، نور الشمس ، وضوء القمر ، وبريق اللهب ، ووميض البرق ، وصوت الرياح، وأنا الرائحة الطيبة التى تنبعث فى أنحاء الكون، والأصل الأزلى لجميع الكائنات، وأنا حياة كل موجود ، وصلاح الصالح ، لأن الأول والآخر ، والحياة والموت ، لكل كائن » .

ويتجه الميل عندهم إلى التفاضل بين آلهتهم المختلفة ، والتفكير فى كل منها بدوره كأنه أسمى من غيره ، وما زالت فكرة تعدد الآلهة هى الغالبة حتى اليوم فى الهندوسية .

وقيل إن كتاب الفيدا أقدم من التوراة بآلاف السنين ، وقيل إنه دُوِّن فى زمن متوغل فى القدم ، ربما يرجع إلى ثلاثين ألف سنة مضت[1] ، ويتألف من أربعة أسفار هى :

١ ــ الريجا فيدا .

٢ ــ الساما فيدا .

٣ ــ الباجورا فيدا

٤ ــ الأثارا فيدا .

والله عندهم جوهر الكون والحقيقة بأكملها ، السائدة كل الأشياء ، والمتداخلة فى كل الأشياء ، والاسم الذى يطلق عادة على هذا الجوهر غير الشخصى هو «براهما» ويسمى أيضا «براماتما» أو الذات السامية، وليس لهذا الجوهر صفات، ولا يوصف إلا بالأوصاف

---

(١) وحدة الدين والفلسفة والعلم تأليف محمود أبو الفيض ، المجلد الأول ، دار العهد الجديد للطباعة .

السلبية ، أى لا يقال عنه إنه صالح أو عامل ، لأن هذه الأفكار جامدة ومعينة وثابتة ؛ والروح اللانهائى يمسى محدودا متى أطلقنا عليه هذه الأوصاف. والكلمة التى تطلق عادة على النفس البشرية « أتما » تدل على أن تلك النفس مقترنة ومتحدة بالذات السامية « براماتما » .

وبراهما هذا ليس خالقا ؛ فهو فكرة ذهنية أكثر منه إرادة عاملة ، وإنما يظن أنه خلق العالم على النحو الآتى : أخذ براهما يتأمل ويفكر ، وعن تفكيره هذا نشأت بذرة مخصبة ، تطورت إلى بيضة ذهبية ، ومن تلك البيضة ولد براهما خالق كل الأشياء .

* * *

وعلاوة على الكتب الهندية المقدسة وما احتوته من الأحكام والأناشيد ، فهناك فِكَر ثلاث تؤثر أعظم الأثر فى العقلية الهندية .

وأول هذه الفكر : فكرة التناسخ أو تجوال الروح ، فهم يعتقدون أن الأرواح حائلة متنقلة فى أطوار شتى من الوجود، تنتقل من جسد إلى آخر، سواء أكان فى الإنسان أو الحيوان ، فى طريقها إلى هدفها الأخير .

أما الفكرة الثانية فهى الأعمال « كارما » وهى متممة لفكرة تجوال الروح وهى لا تعلل فقط حقيقة أدوار الميلاد المتكررة التى تنتقل فيها الروح ، بل تبين أيضا شرائط هذا الميلاد ، وما يستتبعها من عدم المساواة الصارخة فى المصير البشرى ، وتقوم النظرية على أن كل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتما ، وأن كل شىء يختبره الإنسان فى كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التى يأتيها فى الوجود السابق ، وهى بمثابة كفارة .

والكارما معناها العمل . وفى هذه الحالة العمل الذى لابد منه فى الحياة . فهناك ناموس جامد للعلة والمعلول . وقد عرف الهنود الآريون أن الجزاء فى هذه الدنيا لا يتفق مع العمل ، ولا يتكافأ معه . فابتكروا نظرية تناسخ الأرواح لحل هذه المشكلة . فجسد

الإنسان وأخلاقه ومولده ، وثروته واختباره ، وسعادته وآلامه هذه كلها الجزاء الذى تستحقه أعماله التى أتاها فى وجود سابق ، صالحة كانت أو شرِّيرة .

أما الفكرة الثالثة فهى فكرة الانطلاق ، وهى تمثل محاولة النفس الإفلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها . فالحياة فى عرف البراهمة شر وخداع وأسر . أما الحياة الحقة فهى استجلاء طلعة « براهما » التى لا تكتسب إلا بالاندماج فيه ، كما تندمج قطرة الماء فى المحيط العظيم .

وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية ، والاندماج فى الكائن الأسمى ، وهذا الانطلاق لن يكتسب بالأعمال ، لأن الأعمال الصالحة تنتج ثمارها عن طريق الميلاد المتكرر ، كما تفعل الأعمال الشريرة تماما ، إنما يجىء الانطلاق عن طريق الاستنارة الإلهية .

• • •

وأهم تعاليم الديانة البرهمية .

(١) الكائن الإلهى . (٢) مقابلة الإساءة بالإحسان . (٣) القناعة .
(٤) الاستقامة . (٥) الطهارة . (٦) كبح جماح الحواس (٧) معرفة الفيدا .
(٨) الصبر . (٩) الصدق . (١٠) اجتناب الغضب .

وهى الوصايا العشر للدين البرهمى الهندى .

وقد دخلت على الديانة البرهمية فيما بعد معتقدات وطقوس أخرى. فهم مثلا يقدسون البقرة ويحرّمون أكل اللحوم بتاتا .

ومن أشهر فلاسفة البراهمة « كرشنا » الذى ولد حوالى سنة ٤٨٠٠ ق . م وقد اجتهد فى تهذيب أبناء جلدته . وحضهم على التمسك بالأخلاق الفاضلة والابتعاد عن الشر . ومما قاله لهم :

« إن الجسد الذى تهبط إليه النفس شىء زائل . أما النفس التى لا تدركها العين فهى أبدية » .

« إذا انحل الجسد بالموت طارت النفس التى تتغلب عليها الحكمة إلى الطبقات العليا التى يرى فيها الأتقياء الله ويدركون كماله . وإذا كانت الشهوات متغلبة على النفس فإنها تُرَدّ ثانية إلى الأرض » .

نظام الطبقات :

بما أن البراهمة يعتبرون أنفسهم من عنصر إلهى،فهم كهنة الأمة التى لاتجوز الذبائح إلا فى حضرتهم وتحت أيديهم ، لذلك قسموا المجتمع البرهمى إلى ثلاث طبقات :

(١) طبقة الكهنة . (٢) طبقة المحاربين والتجار . (٣) طبقة الخدم .

أما المنبوذون فهم فريق من سكان البلاد الأصليين حال انحطاط شأنهم دون اعتبارهم حتى بين الطبقة الدنيا من الخدم والأجراء .

ونظام الطبقات هذا بما انطوى عليه من الحظر الدينى فى امتزاج الناس بعضهم ببعض هو الحائل القوى دون تقدم الهند ورقيها.وفى أحياء كثيرة يعتبر مجرد لمس المنبوذ دنسا ورجسا فى نظر آخر من أبناء الطبقات،وفى أحياء أخرى يلحق الدنس والرجس بالشخص إذا مر به المنبوذ على بعد بضعة أمتار ، وقد اجتهد غاندى فى القضاء على هذه الفوارق ولكن جهوده لم تكلل بالنجاح .

وديانة المنبوذين تنحصر فى عبادة الأرواح،وأعظم الآلهة عندهم يظهر فى شكل كومة من الآجر أو فى هيئة أخرى ساذجة ، وهذا الإله هو الذى يمنح الخصب للعواقر ، ويحمى المحصول من الآفات ، ويرعاهم برعايته وعنايته ، ولكل مدينة إلهها .

٢ — البوذية

الديانة البوذية منتشرة بين عدد كبير من الشعوب الأسيوية،وهي مذهبان كبيران:

١ — المذهب الشمالى ، وكتبه المقدسة مدوّنة باللغة السنسكريتية ، وهو سائد في الصين ، واليابان ، والتبت ، ونيبال ، وجاوه ، وسومطرة .

٢ — المذهب الجنوبى ، وكتبه المقدسة مدوّنة باللغة الباليَّة ، وهو سائد فى بورما ، وسيلان ، وسيام .

من هو بوذا ؟

اسمه الحقيقى « سِدْهارتا » وقيل « سيزاراسا » ولقب « سا كيامونى » ومعناه : المتَبَتِّل من عائلة سا كيا ، ثم أطلقوا عليه لقب « بوذا » ومعناه المستنير .

كان أبوه « غوتاما » راجا ؛ أى زعيم قبيلة ، وقد ولد « بوذا » فى أواخر القرن السادس ، أو أوائل القرن الخامس قبل الميلاد ، ونشأ قوى البنية ، ممتاز التفكير ، وتزوج وهو فى التاسعة عشرة من عمره من ابنة أحد الأمراء .

وقد اتجه تفكيره منذ صغره إلى التحلِّى بالأخلاق الفاضلة ، وأخذ يقارن بين حياة الترف والنعيم التى يتقلب فيها ، وحياة البؤس والشقاء التى يرزح تحت نيرها قومه ، فازدادت همومه ومتاعبه النفسية .

وفى التاسعة والعشرين من عمره غادر قصر والده، وهجر حياة الترف ولجأ إلى إحدى الغابات متأملا متفكرا،وفى فجر يوم من الأيام بينما كان يجلس تحت شجرة أشرق عليه نور الحق ينبئه أن شقاء الحياة وعناءها وضجرها منبعث من رغبات النفس،وأن الإنسان قادر على أن يكون سيد رغباته ؛ لا عبداً لها ، وفى استطاعته الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبةالآخرين ، وقد أصبحت هذه الشجرة مقدسة فيما بعد عند أتباعه .

وحينئذ غادر الغابة وأخذ ينشر رسالته ويتجول فى البلاد ، معلما كل من أقبل عليه ، متناولا طعامه مما يجود به عليه الناس .

ومات فى الثمانين من عمره ، وأحرق جسده بعد موته بثمانية أيام .

ومن لطيف ما يروي أن بوذا أراد أن يختبر أحد تلاميذه المدعو « بوربا » قبل أن يرسله للتبشير بتعاليمه ، فسأله :

إذا اتفق يابوربا ووجه إليك أحدهم ألفاظا بذيئة خشنة وقحة ، فماذا أنت قائل ؟

فأجابه التلميذ : أشكرهم لأنهم لم يضربونى .

فقال بوذا : وإن ضربوك أو رموك بالأحجار ؟

فأجاب : أشكرهم لأنهم لم يضربونى بالعصا أو بالسيف .

فقال بوذا : وإن ضربوك بالعِصِىّ أو بالسيوف ؟

فأجاب : أشكرهم لأنهم لم يحرمونى الحياة نهائيا .

فقال بوذا : وإن حرموك الحياة ؟

فأجاب : أشكرهم إذ خلصوا روحى من سجن هذ الجسد السَّيِّئ دون ألم كبير .

فقال بوذا حينئذ : أحسنت يابوربا بما أوتيت من الصبر والعزم ، والحزم والثبات فاذهب إلى القبيلة وأقم فيها ، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معك ، وكما تعزيت فعزِّهم معك ، وكما وصلت إلى مقام النرفانا الكاملة فأوصلهم أيضا معك .

* * *

وكان بوذا يقول : « كما أنه لا فرق بين جسم الأمير ، وجسم المتسول الفقير ، كذلك لا فرق بين روحيهما كل منهما أهل لإدراك الحقيقة والانتفاع بها ، وتخليص نفسه »

ويدعو إلى سلوك « الممر الأوسط » بين التلذذ والزهد الخالص فى الدنيا ، ويقول إن لهذا الممر ثمانى شعب هى : الآراء السليمة ، والشعور الصائب ، والقول الحق ، والسلوك الحسن ، والحياة الفضلى ، والسعى المشكور ، والذكرى الصالحة ، والتأمل الصحيح .

الأطوار الأربعة :

ولهذه الطريقة أربعة أطوار تتكسر فى خلالها جميع القيود التى تكبل الإنسان وتمنعه من الوصول إلى درجة الكمال الإنسانى .

فالطور الأول : الإحياء والتجديد ، حين يدرك الإنسان الحقائق ، وعند ما يبلغ

الإنسان هذا الطور يقوى على كسر القيود الثلاثة الأولى وهى : الوهم الخادع فى وجود النفس ، والشك فى بوذا وتعاليمه ، والاعتقاد فى تأثير الطقوس والرسوم الدينية .

أما فى الطور الثانى : فيقوى المهتدى على التخفيف من حدة الشهوة والكراهية وغرور الأوهام .

وفى الطور الثالث : يحطم قيود الشهوة .

وأما الطور الرابع : فيسمى صراط المقدسين . وفى هذا الطور يتحرر القدِّيس من القيود الباقية وهى : الرغبة فى البقاء المادى وغير المادى ، والكبرياء ، والاعتداد بالبِرّ الذاتى ، والجهل . وعند بلوغه هذا الطور يكون قد أدرك الهدف الذى يسعى إليه وهو « النرفانا » .

ماهى النرفانا ؟

تقدم القول أن النرفانا هى الطور الرابع الذى يبلغه البوذى فى مصارعاته وجهوده النفسية عن طريق الإذلال والتعبد . فما هى النرفانا هذه ؟ قيل إنها الاندماج فى الله والفناء فيه . ولكن البوذية لاتعرف إلها قط . وفكرة هذا الفناء فى الإلهية فكرة غريبة ليست مألوفة فى التعاليم البوذية . حقا ! لقد كانت فكرة الفناء فى الله رغبة تاقت إليها نفس بوذا حينما كان يمارس إذلال نفسه قبل أن يرى ما رآه وهو جالس تحت الشجرة المقدسة . إلا أن مطامعه قد تبدلت فيما بعد ، أما النرفانا فى عرف البوذى فهى الطور الرابع الذى يبلغه الزاهد بعد أن يكون قد حطم جميع القيود والأغلال التى تقيد نفسه وتمنعها عن إدراك الحقائق ، وأعرض عن شهوة البقاء ، وتملكه عقل هادئ مطمئن لايتسرب إليه الخطأ ، وتجرد عن كل الأمانى والرغبات والجهالات وأسباب الخديعة والإغراء ، بعد هذا كله يبلغ البوذى طور النرفانا ، يبلغه فى حياته على الأرض كما فعل بوذا .

والحقيقة الأساسية فى تعاليم مؤسس البوذية هى « ناموس العلة والمعلول » فالكون

فى نظره وحدة متصلة متماسكة ، ومجموعة مركبة لا انفصام بين أجزائها وهو مركب من مجموعة هائلة من العناصر المختلفة لا تزيد ولا تنقص ، بل يُعاد توزيعها باستمرار ، ويُعاد ترتيبها ووضعها بحكم الناموس الخاضعة له . وكل مجموعة جديدة إن هى إلا علة نشأت عن المجموعة التى تقدمتها ، ولكنه لم يذكر شيئا عن « العلة الأولى » الذى يدير دفة هذا الكون ، ومحظور على البوذى الخالص أن يبحث فى هذا .

وكانت الصلة بين هذه الفكرة عن العالم ، وبين طبيعة الإنسان فى غاية الخطورة . فللإنسان فضلا عن كيانه الجسمانى خواص عدة هى المشاعر والأحاسيس ، والآراء والميول والقوى العقلية ، وهذه الخواص مقترنة بالكيان الجسمانى تكون مانسميه « النفس » أو « الذات » .

على أنه لم يكن فى رأى بوذا مايعرف بالذات أو النفس ، أي أنه لم يسلم بوجود الذات كشخصية موحدة ، ولم ير إلا تلك المجموعة من الخواص أو الصفات الخاضعة للناموس الذي أشرنا إليه فيما سبق ، وهو « ناموس العلة والمعلول » وهذه الخواص والصفات توزع من جديد عند الموت . وانتفاء هذه الشخصية الموحدة يعنى انعدام الخلود بعد الموت ، فالذات أو النفس لا وجود لها فى تعاليم بوذا ، وأما العناصر التى يتكون منها الإنسان ؛ فمصيرها عند الموت فى رأيه التفكك والتجمع ثانيــة فى وجود جديد ، فى مجموعة جديدة .

والمفروض أن العناصر المكوِّنة للإنسان ينبغى أن تخضع للناموس العام فى الكون ، ويتولد عن هذا الخضوع تناسق فى المجموعة كلها ، غير أن الأمانى والرغبات فى الذات البشرية هى التى تولّد التنافر ، وذلك لأن خواص الإنسان من أحاسيس وميول وآراء متى اتصلت بالعالم الخارجى تخلق رغبة ملحة .

وهنا يحق لنا أن نقول : إن كثيراً من هذه الرغبات والأمانى صالحة ، لا غبار عليها ، ولها مايبررها ، ولكن بوذا لايسلم مطلقا أن هذه الرغبات والأماني قد تكون صالحة .

فالرغبات عنده تنشأ عن الأعمال صالحة كانت أو شريرة ، ولكنها تعمل على إقصاء النفس من الحياة المركزية فى الكون ، وعند الموت تُنْتِجُ الرغبة التى يكون قد أشبعها الإنسان ، وكذلك الأعمال التى نشأت عنها ، كائنا جديدا ، فإن كان للإنسان شهوات حيوانية وحشية ، تتجمع هذه العناصر كلها ، وقد تخلق بعد موته حيوانا شرسا وحشيا كالنمر .

قلنا إن « النرفانا » هى الطور الذى يبلغه البوذى فى حياته بعد أن يتجرد من أمانيه وجهالاته . فإذا مات الجسد زالت الأمانى والرغبات ، وكل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتما ، وكل شئ يختبره فى كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التى يأتيها فى الوجود السابق ، وهى بمثابة كفارة ؛ فالنرفانا ليست فى حد ذاتها موتا ، بل هى حالة فى السلام المقيم ، والقداسة الكاملة ، والتجرد من الأمانى والرغبات ، ومن كل الأشياء التى تغرى الإنسان بالتشبث بهذا الكيان المستقل ، هى جنة البوذيين التى ينعمون فيها بعد التطور الأدبى فى الطريق ذي الشعب الثمانى المتقدم ذكره .

ولذلك اكتفى بوذا بأن أعطى عامة الشعب مجموعة هائلة من التعاليم الأدبية والأحكام والوصايا التى أودعها كتبه ، وهو يعتقد أن قليلين جدا هم الذين يبلغون النرفانا فى جهادهم الأخلاقى ، وأنكر بوذا الصلاة .

الفصل الثالث

الصينيون

كانت ديانة الصينيين [1] تقوم على عبادة السماء باعتبارها الإله الأعظم ، وحاكم الحكام ، أو رب الأرباب . ثم عبادة الأرض لأن للأرض إلها . ثم عبادة أرواح الأجداد . ثم عبادة الجبال والأنهار . وأخيرا تقديم الأضاحى الخمس التى ترمز إلى العناصر الخمسة التى يرجع إليها أصل كل الموجودات وهى : المعدن ، والخشب ، والماء ، والنار ، والتراب .

وبعد قرون طويلة استقر الصينيون على أديان ثلاثة وهى :

(١) الكنفوشية . (٢) البوذية (٣) التاوزمية .

من هو كنفشيوس ؟

يتألف اسم كنفشيوس من لفظين : كونج ، وهو اسم القبيلة التى ينتمى إليها ، وتوتس ومعناه الرئيس أو الفيلسوف . فاسم كنفشيوس يعنى رئيس كونج أو فيلسوفها ، أو حكيمها .

وقد ولد فى مدينة تسو ، من أعمال مقاطعة شانج بنج سنة ٥٥١ ق . م من أسرة عريقة وكان أبوه ضابطا حربيا ممتازاً إلا أنه كان فقيرا ، وقد مات وابنه كنفشيوس فى الثالثة من عمره . وترك أسرته فى حالة فقر ، فاضطر الغلام إلى الاشتغال برعى الأغنام عند أحد الأمراء ، فأظهر اجتهادا وأمانة وإخلاصا فى عمله جعلت الأمير يعجب به ويسند إليه إحدي الوظائف .

وكان يقضى أوقات فراغه فى دراسة الآداب القديمة والفلسفة والموسيقى .

---

(١) أديان العالم الكبرى .

وفى الثانية والعشرين من عمره أنشأ مدرسة ليتلقى فيها الشبان ذوو المواهب الخاصة أصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية ؛ وبجانب عمله هذا كان يقوم بوظيفة المستشار السياسى لبعض الأمراء والولاة الذين كانوا ينتفعون بآرائه فى حل مايصادفهم من مشكلات . وفى سنة ٤٩٦ عين رئيسا للوزراء فى ولاية « لو » فأعدم المشاغبين من الوزراء ورجال السياسة . وأدب اللصوص وقطاع الطرق ، كما وضع مراقبة صارمة على التجار ليمنع الغش والاحتكار . ولكن حساده دسوا بينه وبين أمير « لو » فاضطر كنفشيوس إلى ترك هذه الولاية ، وأخذ ينتقل من إقليم إلى إقليم يعلم الشبان وينصح الولاة .

وقد نشأ كنفشيوس فى عصر انحلال خلقي ، وفقر مادى ، وانحطاط دينى . كان الأباطرة ضعافا وأمراء الولايات فى حروب مستمرة ، ولا هَمّ لهم إلا جمع الضرائب من المزارعين الذين كانوا يهيمون على وجوههم هربا من الضرائب الباهظة ونتج عن ذلك أن أثرى بعض الأفراد على حساب بعضهم الآخر ، فاختل التوازن الاقتصادي ، وظهرت الفوارق الشاسعة بين الثروات . وفى خلال الاضطراب أخذ التفكير الفلسفى الحر يشق طريقه إلى الوجود . فرأينا خليطا من الأفكار العجيبة ، والآراء المتناقضة إلى أبعد حدود التناقض . فقد نادى بعض الفلاسفة بالرجوع إلى حياة الطبيعة والبساطة ، وترك الحضارة والمدنية وهذا الاتجاه يشبه اتجاه چان چاك روسو الذى ظهر بعد ذلك بقرون طويلة فى فرنسا ، وبعضهم نادى بتقسيم الثروات وإعادة تنظيم الملكية . ونادى فريق بالشيوعية ، ودعا آخرون إلى حياة الزهد والتقشف . وبجانب ذلك ظهرت مذاهب تشبه المذاهب الفلسفية اليونانية كالسوفسطائية والرواقية والأبيقورية .

فى هذا الجو المضطرب قام كونفشيوس[1] ونادى بالتمسك بحكمة القدماء ، ونقل التراث القديم إلى أبناء عصره ، ودعا إلى إحياء هذا التراث والسير على قواعده ومبادئه ، فتملك نفسية الجماهير .

---

(١) كونفوشيوس النبى الصينى ، تأليف الدكتور حسن شحاتة سعفان ط الرسالة ١٩٥٦ .

وقد نجح نجاحا عظيما فى المجالين الخلقى والدينى . ومن ثم اعتبر من هؤلاء الأفراد القلائل « الذين وهبوا تفويض السماء أو الله » لهداية الناس وإرشادهم ، وهذا هو المعنى الذى يفهمه الصينيون من كلمة نبى أو رسول ، وهذا هو المعنى الذى يقصد عند ما يقال إن كونفشيوس كان نبيا عند الصينيين .

وأخذ كونفشيوس يؤلف الكتب وينشر تعاليمه متنقلا من ولاية إلى أخرى حتى أطلق عليه معاصروه اسم « معلم الجنس البشرى » ونظروا إليه على أنه أعظم معلم للجنس البشرى عرفه العالم ، واعتبروا كتابه « المنتخبات » أو « المحاورات الفلسفية » كتابا مقدسا .

ولم يدّع كونفشيوس أنه نبى يوحى إليه ، والواقع أنه كان حكيما أكثر منه رجل دين ، ومع ذلك فقد كان لديه من الشعور الدينى ما أدى به إلى احترام الآلهة والمداومة على إقامة الشعائر والطقوس الدينية . ولكنه كان يعترف دائما بأنه يعبد الإله الأعظم والآلهة الأخرى على غير معرفة بهم ، ودون تثبت من حقيقة الآراء الدينية التى لا يستطيع الإنسان أن يبرهن على صحتها بشكل مفعم لا يترك مجالا للشك أو البلبلة . وكان يؤدى الصلاة وهو صامت لا ينطق بالكلمات على غير عادة الناس فى عصره، وكان يكره أن يصلى أو يرجو الإله أن يشفيه أو أن ينعم عليه بنعمة ما ، أو أن يغفر له، إذ أن الصلاة فيما يرى لا غاية لها إلا تنظيم سلوك الأفراد والتأليف فيما بينهم ، بل يرى فى الدين كله هذا الرأى ، ويقول كونفشيوس فى هذا المعنى « إن الفرد الذى يرتكب خطأ ضد السماء لن يجد من يغفر له زلاته » فالصلاة عنده لا تمحو ذنبا ، وقد أوجب على أتباعه الاستحمام قبل أداء الصلوات .

* * *

الأخلاق عند كونفشيوس :

كانت عناية كونفشيوس متجهة إلى إصلاح النفس الإنسانية ، وتكوين مجتمع

سليم قوامه المحبة والإخاء والعدل ، والقانون الأخلاقى عنده يفرض على الناس أربع فضائل رئيسية وهى :

١ — وجوب طاعة الوالد والخضوع له .

٢ — وجوب طاعة الحاكم والانقياد له .

٣ — على الأخ الأصغر أن يطيع أخاه الأكبر ،وعلى الأصدقاء أن يخلصوا فى معاملة بعضهم بعضا .

وهذه الفضائل فى نظر الكونفوشيين خالدة ، ويجب على كل فرد فى المجتمع أن يتحلى بها باستمرار ، لأن الاستمرار فى التحلى بالفضيلة هو نفسه جزء لايتجزأ من الفضيلة .

كما يجب إلى جانب هذه الفضائل الرئيسية أن يحترس الإنسان فى كلامه لئلا يجرح الآخرين، وأن يتناسب كلام المرء مع فعله، فالثرثرة عندالكونفوشيين من أقبح الرذائل. قال كونفشيوس « إن الرجل العاقل لايحكم على الناس بأقوالهم ، بل بأعمالهم، ففى العالم المتحضر نجد المجتمع زاخراً بالأعمال السامية ، بينما فى العالم المتأخر أو غير المتحضر نجد المجتمع زاخرا بالخطب الرنانة » وقال « إنى أكره جعجعة الخطب » وقال « قلما يكون الشخص ذو الخطب المؤثرة فى المظهر رجلا فاضلا » .

والكونفشيون يكرهون أن يظهر الرجل على غير حقيقته ، ويسمون الأفراد الذين يتظاهرون بما ليس فيهم « لصوص الفضيلة » لأنهم إذ يظهرون على خلاف حالتهم الواقعة إنما يسرقون ميزات غيرهم .

ويجب على المرء أن يكون ذا مسلك عادل فى حياته الاجتماعية،فإن كان رئيساً فعليه أن يعامل مرءوسيه بلين ورقة ، وإن كان مرءوسا فلا يحاول أن يتملق رؤساءه ، أو أن يبذل مساعيه فى سبيل حملهم على إعطائه ترقيات ومزايا ليس أهلا لها ، أو يكون غيره أجدر منه بها ، وينصح كونفشيوس أتباعه بأن يعملوا دائما على أن يكونوا موفورى

الكرامة ، وأن لا يطلبوا شيئا من أحد ، ولا يتملقوا أحدا ، وأن يعتمد كل منهم على جهده للوصول إلى ما يبغى .

وإذا جد الإنسان واجتهد ، ولم يصل مع ذلك إلى ما يريده ، فليتقبل حظه ونصيبه برضا وارتياح ، ولا يحاول أن ينحى باللائمة على الآخرين ، أو أن يحملهم تبعة إخفاقه ، أو أن يشكو من سوء حظه ويعزوه إلى السماء ، وبهذا وحده يستطيع العاقل الحكيم أن يعيش مرتاح النفس ، هادئ البال ، وليعلم الإنسان أن أسباب إخفاقه ترجع إلى أنه زاول أعمالا لم تتفق مع مواهبه ، ولم يكن مستعدا لها ، قال كونفشيوس : « إن الرامى يمكن أن يقارن بالحكيم فى بعض المواضع ، فإذا أخطأ المرمى الذى كان يريد إصابته فليفكر فى نفسه وليبحث فيها عن أسباب الإخفاق » .

* * *

والتعليم من أهم العوامل التى تجعل الأفراد يفهمون القانون الأخلاقى ويسيرون على هديه ، ويجب أن يتعلم الأفراد آراء القدماء وحكمهم، وما ورد عنهم من قصص ، وعليهم كذلك أن يطالعوا مؤلفات الكونفوشيين حتى يلموا إلماما جيداً بآرائهم الفلسفية والدينية والسياسية ، ومن مهام التعليم تفهيم الأفراد الأسس التى تقوم عليها الفضيلة وتقربهم منها .

وعلاوة على ما تقدم فإن سلامة النية تعتبر شرطاً أساسيا من شروط الوصول إلى القانون الأخلاقى ، ويعنون بسلامة النية ألا يخدع الإنسان نفسه ، وأن يعمل دائما على إرضاء ضميره ، ويتطلب ذلك من الإنسان أن يحاسب نفسه ويراقب سلوكه، وأن يكون عادلا فى إصدار أحكامه ، غير متحيز .

* * *

وقد تناول كونفشيوس الطبيعة الإنسانية فقال «إن الناس يولدون خيِّرين سواسية بطبيعتهم ، ولكنهم كلما شَبُّوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجيا وفق ما يكتسب

من عادات » وقال « إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة ، فإذا افتقد الإنسان هذه الاستقامة أثناء حياته ، افتقد معها السعادة » .

وإذا كان الكونفشيون يعتقدون أن الإنسان خير بطبعه ، فإن جميع الحيوانات الأخرى فيما يرون ذات طبائع شريرة ، ولذلك كانوا يطلقون على ذوى السلوك المنحرف إنهم من طبيعة حيوانية .

والأخلاق الكونفوشية أخلاق إنسانية أى أنها تتخذ الإنسان وأعماله محورا لها. يقول كونفشيوس « إن الإنسان هو الذى يجعل الصدق عظيما، وليس الصدق هو الذى يجعل الإنسان عظيما» فالأخلاق عنده تقوم على دراسة الطبيعة الإنسانية، ووضع مثاليات لهذه الطبيعة تتفق وحالتها، فهى لا تزج بالإنسان فى عالم آخر يلقى فيه جزاءه ، وإنما هى توجه اهتمامها إلى مقاييس الخير والشر فى المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان وقد سأله بعض تلاميذه مرة عن الموت فقال : « إننا لم ندرس الحياة بعد ، فكيف نستطيع أن ندرس الموت ؟ ! » وقال كونفشيوس « إن الفرد الذى يريد أن يعيش وفقا لقوام الإنسانية الصحيحة دون أن يخشى عقابا ، والذى يكره أن يعيش فى تناقض مع هذه القواعد ، يستطيع أن يتخذ من نفسه مقياساً للأخلاق الفاضلة . وعلى ذلك فالإنسان المتين الخلق يستطيع أن يناقش المسائل الأخلاقية ويقيسها متخذا من نفسه المقياس الصحيح لها ، أى يستطيع أن يضع القواعد الأخلاقية لغيره من الناس العوام » .

وإذا نشأ الأفراد نشأة صالحة فلن تكون ثمة حاجة إلى قضاة ولا قانون . وقد سئل كونفشيوس عن رأيه فى الوشاح الذى يلبسه القضاة ، وعن مهمة القاضى . فأجاب « إن المشكلة ليست مشكلة الوشاح ولكن المشكلة هى فى إصلاح حال الأفراد، وبذلك يمكن الاستغناء عن القضاء كلية » .

وقد اتخذ كونفشيوس الدين وسيلة لدعم الأخلاق ، وتوثيق الصلة بين الأفراد بعضهم ببعض من ناحية ، وبينهم وبين الحكام من ناحية أخرى ، والواقع أنه كان يعتبر الدين والأخلاق والسياسة شيئا واحدا .

أما آراؤه السياسية فتتجلى فى حكمه التى تؤكد الصلة بين رغبة الشعب ورغبة الله ـ فالشعب ليس إلا معبرا عن السماء أو الله ، قال مخاطبا الأمير « إذا نلت حب الشعب فإنك تنال حكم الأمبراطورية ، وإذا فقدت حب الشعب فقدت الأمبراطورية » .

والفلسفة السياسية الكونفوشية تقوم على أساس أن الحكم ليس إلا توكيلا أو تفويضا من الله أو من السماء للحاكم ، والله لايهب الحكم إلا لذوى الأخلاق الفاضلة ، لأن الحاكم بمثابة نائب الله على الأرض ، والتفويض الذى يمنحه الله للحاكم ليس تفويضا أبديا ، بل يصح أن يسحب منه فى أى وقت ، وذلك عند ما يحيد عن جادة الصواب ، ويبتعد عن الأخلاق الفاضلة ، ويفقد ثقة شعبه .

وكان كونفشيوس يكره النساء ، ويرجع إليهن أسباب كثير مما ابتليت به الإنسانية من شقاء .

ويقوم المجتمع الكونفوشى على أساس احترام حق الملكية ، بل إن كونفشيوس لم يفرق بين العدل واحترام الملكية ؛ إذ يعتبر كلا منهما مرادفا للآخر ، وكان أبشع الجرائم عنده أن يعتدى شخص على ملكية الآخر .

* * *

وكان كونفشيوس أديبا ممتازا ، ومن أقواله المأثورة « اثنان لايغيران رأيهما : أعقل الناس وأسخف الناس ؛ أعقل الناس لثقته بعقله ، وأسخف الناس لضعف عقله » .

عاش كونفشيوس حوالى ثمانين عاما قضاها فى نشر الفضائل ومحاولة إصلاح المجتمع الصينى ، ومات سنة ٤٩٨ ، وقيل سنة ٤٧٩ ق . م . أى أنه مات قبل موت سقراط بإحدى عشرة سنة ، فدفنه أتباعه بالقرب من مدينة « كيوه فو » فى احتفال مهيب . وقد أجمع الصينيون على عبادته وتقديس كتبه وهي :

١ — مختارات كونفشيوس .

٢ — تعاليم البالغين .

٣ — الاعتدال .

وعبادة كونفشيوس هى ديانة أهل الصين ، فقد أقاموا له المعابد الفخمة فى كل المدن والقرى .

* * *

البوذية الصينية :

انتقلت البوذية من الهند إلى الصين على يد المرسلين الهنود والحجاج الصينيين الذين ذهبوا إلى الهند وعادوا إليها حاملين الرسالة البوذية . فلما استوطنت الهند طرأت عليها بعض التغيرات . فبوذية الهند لا إله لها ، ولكنها حين انتقلت إلى الصين مالت إلى الاعتقاد بفكرة كائن مطلق يتمثل فى شخصيات مختلفة ؛ بوذا واحد منها . وأشهر تلك الشخصيات فى الصين من يدعونها « كوان ين » وهى عندهم إلهة الرحمة ، يرفعون إليها الابتهالات فى المعابد البوذية .

ثم زالت فكرة «النرفانا» فى البوذية الصنية وحلت محلها فكرة الفردوس المادية وفيه تنعم النفس بالحديث مع الشخصيات الإلهية . والبوذى الصينى لا يفقه شيئا من معنى النرفانا الهندية ، ولكنه يعتقد أنه سيذهب بعد الموت إلى فردوس فى الغرب .

والصلوات أو على الأقل الابتهالات ذائعة في البوذية الصينية مع أنه لا وجود لها فى البوذية الهندية التى شرعها بوذا نفسه .

فكأن البوذية عند انتقالها إلى الصين قد أمست مادية .

* * *

٣ — التاوزمية :

التاوزمية دين صينى أسسه فيلسوف اسمه « لاوتز » الذى ولد سنة ٦٠٤ ق . م .

وتقوم هذه الديانة على مبدأين :

الأول : القانون السماوى الأعظم ، وهو أصل الحياة والنشاط والحركة لجميع الموجودات فى السماء والأرض . ولكنه ليس متعاليا على الموجودات بل هو فيها نفسها.

هو ليس شخصا ، وليست له فردية منفصلة عن الأشياء التى هو سر حياتها ووجودها .

والمبدأ الثانى : الاستقبال ، أى أن الأشياء تستقبل حياتها ونشاطها وشكلها ولونها بفضل الاستقبال . ومن هنا نفهم أن التاوزمية قريبة الشبه بمذهب وحدة الوجود ؛ الذى يوحد الخالق والمخلوق ، إذ هما شىء واحد ، فلا وجود لأحدهما منفصلا عن الآخر، بل هما يكونان شيئا واحدا لاتنفصل أجزاؤه وإلا لاقى الفناء . كما أن التاوزمية قريبة جدا من مذهب الحلول الذى يذهب إلى أن الخالق حالّ فى كل الموجودات ، وهى إذ تتحرك وتتشكل وتتلون إنما ترجع كل ظواهرها هذه إلى حلول الخالق فيها ، كما أن الخالق لايستطيع أن يتصرف أو يعمل إلا بحلوله فى الأشياء .

وتختلف التازومية عن الكنفوشية ، فبينما تقوم الثانية على العقل والمنطق والدراسة والتحصيل وإحياء عادات القدماء وتقاليدهم كما مر بنا، نجد التاوزمية تؤسس تعاليمها على التصوف . فالتاويون يحتقرون العادات القديمة كما يحتقرون الدراسة والتحصيل ، بل يحتقرون العقل كأساس لاكتساب المعرفة ، لأنه فى زعمهم يؤدى إلى تشويه الحقائق التى يكتسبها الإنسان بالفطرة وبدون حاجة إلى التعلم . والمعرفة الصحيحة هى معرفة القانون الأعظم ، أو هى المعرفة التى يكتسبها الفرد عن طريق التصوف . فالتصوف هو الطريق الوحيد للوصول إلى المعرفة .

والتصوف عند التاوزمية يقوم على مراحل تدريجية متعددة ، تبدأ بمرحلة يخلو فيها الفرد إلى نفسه، ويقطع كل صلة بينه وبين عالم الأشياء المحسوسة، وتتلو تلك مرحلة ثانية تقوم على الامتناع عن كل مامن شأنه تدليس الروح والحيلولة بينها وبين الوصول إلى الحقائق المجردة . وفى هذه المرحلة يتجرد ذهن الإنسان عن الماديات حتى يصير روحا خالصة . وبعد ذلك تأتى مرحلة الرؤيا أو الإشراق ، حيث يدرك الفرد الحقائق المجردة إدراكا مباشرا لا وساطة فيه . وأخيرا تأتى المرحلة النهائية ؛ وهى مرحلة الاتصال التام أو الوحدة التامة بين الفرد والقانون الأعظم ، وهى المرحلة التى يحصل فيها اندماج تام بين

شخصية المتصوف والذات العليا ، بحيث تفنى الشخصيتان بعضهما فى بعض ، وتصيران شخصية واحدة .

وإذا كانت الكونفشية تدعو الناس إلى العمل والجد والاجتهاد ، فإن التاوزمية تتجه اتجاها سلبيا . فالفضيلة فى رأيها هى عدم العمل والاقتصار على التأمل والتجربة التصوفية ؛ فكما أن السماء والأرض لا تنطقان بكلمة واحدة ، وكما أن الفصول تتوالى وفق نظام دقيق دون تدخل منا ، ودون أية مناقشة ، كذلك تتحقق الفضائل ويسود السلام إذا لم نتدخل ولم نعمل ، ومن هنا ساد بين أتباع التاوزمية حكمة ، « اشغل نفسك بلا مشغلة » أى أن الإنسان يجب أن يشغل نفسه بلا شيء ، أى لا يشغل نفسه بشيء على الإطلاق .

ومن هنا نادوا بالحرية وعدم التدخل فى شئون الأفراد ، ونقدوا الثراء الفاحش .

الفصل الرابع

اليابانيون

تنتشر بين اليابانيين[1] ثلاثة أديان وهى : (١) الشنتوية . (٢) عبادة الميكادو . (٣) البوذية اليابانية .

١ — الشنتوية :

الدين الأصيل فى بلاد اليابان هو الشنتوية ، وكلمة « الشنتوية » تعنى « طريق الآلهة » .

وهذه الديانة لا تنتسب إلى مؤسس معين كالبوذية مثلا ، ومن المرجح أنها كانت

---

(١) أديان العالم الكبرى .

فى أدوارها الأولى ضربا من عبادة الأرواح ، ثم اختفت مع تطور الدين تلك الخواص الفطرية التى ظهرت فى الأدوار الأولى وإن يكن الكثير منها باقيا فى أذهان العامة من أهل تلك البلاد . ويظهر ذلك بوضوح فى التعاويذ الخشبية أو الورقية التى تعلق عادة فوق أبواب المنازل ، وقطع القماش التى ترفرف فوق الآبار أو الأشجار المقدسة ، وحبال القش التى تتدلّى فوق أبواب الهياكل . فهذه كلها آثار لعبادة الأرواح التى كان مفروضا على اليابانيين استرضاؤها .

وكذلك نجد فى الشنتوية عبادة الطبيعة ، وخصوصا القوى الطبيعية المنتجة ، وهى من خصائص الأديان الفطرية الأولى . فهم يعظمون إلهة الشمس ، ومن آلهتهم الطبيعية إله الأرز الذى تكثر معابده فى الأقاليم التى تنبت الأرز بكثرة فى اليابان ، ويطلقون لفظة « كامى » على كل إله أو شىء يسمو فوق الفرد ، كالسماء مثلا ، أو سلطان الحكومة . وقد كان من مميزات الشنتوية فى عصورها الأولى توقير السلف من القبائل أو زعماء الجماعات السالفة ، وقد استمر هذا التوقير حتى عصرنا هذا .

وهناك فرق بين توقير اليابانيين للسلف من القبائل ، وبين عبادة الأسلاف فى بلاد الصين . ففى الأخيرة تتجه الفكرة إلى الإكبار من شأن الأسرة أو الأب والأم والجدود ، وإحلالهم محل التوقير والعبادة فى بلاد الصين ، أما فى الشنتوية فالفكر متجه إلى الجماعة أو القبيلة ، وعبادة الأسلاف المعروفة فى بلاد الصين ذائعة فى بلاد اليابان ، ولكنها كنفوشية فى أصولها ، ومكملة لتوقير اليابانى لقبيلته وأبطاله وأسلافه .

* * *

٢ — عبادة الميكادو :

وكان رجال قبيلة « ياتو » أشد الناس إحياء لتوقير السلف من القبائل ، وهم الذين صاروا سادة اليابان فيما بعد ، وكان زعيمهم المعروف بالميكادو مركز دينهم وعبادتهم . ثم زعموا أن الشمس تَمُتُّ إليهم بصلة التربى ، ومنها تحدّر الميكادو ، فحسبوه ممثل

الشمس وآلهة السماء على الأرض ، وكانت عبادة أسلاف القبائل الذائعة فى اليابان قبل إخضاع أسرة «ياتو» لها خير ممهد لهذه العقيدة الجديدة . وفعل رجال « ياتو » كثيرا فى تبسيطها وتقريبها إلى أذهان العامة بأن أدخلوا عليها آلهة صغرى هم زعماء القبائل التى دانت بالطاعة والولاء لحكم الأسرة الفاتحة . وكان لهذا الجمع بين الآراء السياسية والدينية أثره الكبير فى وجود توقير يكاد يبلغ حد العبادة لشخص الأمبراطور .

وعلى هذا فالشنتوية ليست دينا محكم الأوضاع ، ولا تقاس بالهندوسية فى أسرارها ، ولا بالكنفوشية فى مكانتها الأخلاقية ، ولكنها تنطوى على طراز معين من الوطنية الدينية المتطرفة . فالأمبراطور والدولة فى نظر اليابانى هما كل شيء ، والفرد لا شيء . وكانوا يستسيغون تضحية الذات فى سبيل الأمبراطور ، بل كانوا يرحبون بها كشرف عظيم . وكانت عبادة الأمبراطور من العناصر البارزة فى دين اليابان ، وذلك قبل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) وبعد أن انهزمت اليابان فى تلك الحرب عملت السياسة الأمريكية على إبطال عبادة الأمبراطور ، وحاولت القضاء على الوطنية المتطرفة التى تغرسها الشنتوية فى النفس اليابانية .

أما من الوجهة الخلقية فالشنتوية ليست ديناً ساميا ، فهى لا تعير اهتماما كبيرا للأخلاق والآداب ، لأنها لا تقيم للفرد وزنا . على أن هناك ناحية واحدة قد يكون فيها نوعا من الصفة الأدبية تلك هي ناحية النظافة « فإن الدنس مصيبة ، والرجس خطية ، والطهارة الجسدية هى على الأقل قداسة . وكل شيء يدنس الجسد أو الثياب مستقبح مكروه » .

وقد لعبت النظافة الطقسية دورا خطيرا في حياة اليابانيين . فالشعب اليابانى مجبول على مراعاة النظافة التامة ، وهذه قوة أدبية لا يستهان بها .

وفى منتصف القرن السادس الميلادى هاجر إلى اليابان بعض الكهنة البوذيين من كوريا والصين ، وكان لهم أثر عميق فى البلاط الملكى . وقد حاولوا أن ينشروا الديانة البوذية فى اليابان ولكنهم أخفقوا إخفاقا عظيما ، وذلك لتمسك الشعب اليابانى بالشنتوية . وفى

القرن الثامن الميلادى ظهر راهب بوذى فى اليابان وابتكر نظاما ابتلعت فيه الشنتوية . وفى هذا النظام أدمج كل آلهة الشنتوية حاسبا إياها مظاهر متجسدة لبوذا ، واشترط أن يكون هذا شأن الأباطرة « الميكادو » فى المستقبل ، أى أن يدمجوا ضمن هذه الآلهة الصغرى . ولئن كان بقى لدى عامة الشعب شئ كثير من عبادة آلهة الطبيعة ، فإن هذا النظام قضى أن تدمج الشنتوية فى البوذية .

وفى العصر الحديث حينما استيقظ الشعور القومى فى اليابان وبلغ ذروته فى ثورة سنة ١٨٦٨ م أظهر الشعب نفورا من كل ماهو أجنبى ، وزحزح البوذية الدخيلة عن مكانتها ، فأزيلت تماثيل بوذا من الهياكل ، وأوقف الكهنة البوذيون عن ممارسة وظائفهم ، وعادت الشنتوية دينا قوميا فى المرتبة الأولى . وكانت الحكومة اليابانية تعمل على توطيد أركان الشنتوية ، وغايتها الاحتفاظ بعبادة الامبراطور وخلود مركزه ، وتنزيهه عن العيوب والنقائص ، والسموّ به إلى درجة لايشاركه فيها سواه. وقد جاء فى منشور صدر عن وزارة المعارف اليابانية سنة ١٩٣٧ : « إن أرضنا بلد إلهية ، يحكمها الأمبراطور ، وهو إله » .

* * *

٣ - البوذية اليابانية :

تعتبر البوذية اليابانية « بوذا » جوهرا إلهيا حالا فى الكون ، ومتمثلا فى أوضاع مجسمة مختلفة . وثقافتهم مأخوذة عن « إميدا بوذا » وهم يزعمون أن « إميدا » هذا ظهر على الأرض فى العصور الماضية فى شكل راهب ، وأخضع نفسه لضروب من الإذلال والقهر حتى استطاع فى النهاية أن يرقى إلى الحالة المجيدة التى نزل منها . وقبل عودته نذر نذرا وهو أنه لو قُدِّر له أن يبلغ درجة الكمال فى البوذية فإنه لايرضى خلاصا قبل أن يتهيأ هذا الخلاص للجنس البشري المتألم . وتنفيذا لهذا النذر عانى كثيرا من الآلام والأوجاع ، وكانت ثمار جهوده افتتاح فردوس فى الأرض الطاهرة يجوز إليه كل من يدعون باسمه .

وكان مبدع هذا التعليم راهبا اسمه « شنران » ومما قاله « إن الأعمال ؛ أى التَّقشف والصوم والطقوس وما شاكلها لاقيمة لها فى الخلاص الذى يقوم فى أصوله على الإيمان فى نذر إميدا » ولكى يدفع عنه تهمة القول إن تعاليمه يبعث على ارتكاب الخطايا ، قال « إن الامتنان المتغلغل فى نفس الإنسان الذى يشعر بخلاصه يسوقه إلى الإكثار من الأعمال ، أى أعمال الصلاح ، مدفوعا إلى ذلك بروح الشكر أكثر منه بالرغبة فى كسب الخلاص» .

وليس « إميدا بوذا » لليابان فقط ، فهو مظهر بارز فى قوانين ومناسك البوذية الشمالية . بل يقول اليابانيون إن « بوذا » أشار فى أخريات حياته إلى « إميدا » هذا ، وزعمهم هذا غير صحيح لوجود فرق عظيم بين تعاليم الرجلين .

ومما هو جدير بالذكر أن البوذية والشنتوية يتبادلان التسامح الكريم ، فترى الناس ينتقلون من هيكل بوذى إلى معبد شنتوى دون حرج . والعقائد التى يعتنقها الفرد اليابانى العادى مزيج من نظافة الشنتوية والأخلاق الكنفوشية البوذية .

الباب الثانى

أديان ظهرت بعد عصر الشهرستانى

الفصل الأول

اليَزِيدية أو عَبَدة الشيطان

اليزيدية طائفة ينتمى معظمها إلى الجنس الكردى ، ويقطن أتباعها فى بعض نواحى الشرق الأدنى وخاصة فى المناطق التالية :

١ — قضاء الشيخان فى الشمال الشرقى من الموصل ، وفيه أهم مراكزهم السياسية والدينية كباعدرى قاعدة أميرهم ؛ وقبر الشيخ عادى وهو أعظم مقاماتهم الدينية ، وبَاحْزَانى وبعشيقة وغيرها .

٢ - قضاء سنجار الواقع فى الشمال الغربى من العراق على الحدود بينه وبين سوريا ، وهو منطقة جبلية منيعة ومعقل حصين ؛ كانوا يعتصمون به فى أيام الاضطهاد .

٣ - ديار بكر ، وماردين ، وجبل الطور .

٤ — منطقة حلب حول كلّس وعيدتتاب .

٥ — البلاد الأرمنية الواقعة على الحدود بين تركيا وروسيا ، وخاصة فى منطقتى قرص وإيراوان ، وحول تفليس من بلاد القوقاس .

٦ — هناك بعضُ اليزيدية فى إيران .

وأكثر هذه الطائفة يسكن المدن والقرى ، ويشتغل بزراعة الأرض ، إلا أن بعضها لايزال فى طور البداوة ، ويؤلف قبائل رحالة تدعى الكوچر . ويقدر عدد أفرادها بحوالى ثمانين ألفا .

* * *

وقد اختلف الباحثون فى تعليل تسميتهم . فبين اليزيدية أنفسهم من يعتقد أنهم دُعوا بهذا الاسم نسبة إلى الخليفة الأموى يزيد بن معاوية الذي أحيا دينهم القديم وأطلق عليه اسمه . ونجد رئيسهم إسماعيل چول المتوفى سنة ١٩٣٣ ، يقول « فقال – يعنى محمدا – لمعاوية إذ كان حلاقا أن يحلق رأسه ، فقام يحلق رأس محمد بصعوبة حتى جرحه وجرى منه دم ، وإن معاوية خاف أن يسقط دم محمد على الأرض لعطه بلسانه ، فرفع محمد رأسه وقال له : ماذا فعلت يامعاوية ؟ فأجابه : فزعت أن يسقط دمك على الأرض لعطته بلسانى لأنه بركة، أجابه محمد : أخطأت لأنك بهذا العمل ستجلب وراءك أمة تحارب أمتى وتغلبها! فأجابه معاوية : إذا كان الأمر كذلك فأنا لا أدخل العالم ؛ أى لا أتزوج قطعا . وبعد زمان سلط الله على معاوية عقربا ، حينئذ محمد وأقاربه جمعوا له الأطباء حتى يعالجوه فحكم الأطباءُ إن لم يتزوج يموت ، فأحضروا له ابنة عجوزا عمرها ثمانون سنة اسمها « ميوسة » أخت عمر بن الخطاب وعرفها ، وأصبحت ثانى يوم ابنة خمس وعشرين سنة وحبلت وولدت ملكنا يزيد من نور الله » .

وهذه القصة لانصيب لها من الصحة ولا وجود لها فى كتب التاريخ على الإطلاق، وإن واضع هذه القصة جاهل جهلا تاما بالتاريخ الإسلامى ، وذلك لأن معاوية لم يتزوج من أخت عمر بن الخطاب، ولأن يزيد لم يولد فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام، وأم يزيد هى ميسون الكلابية ، ولماذا اختار الله أن يجعل إلههم يزيد من أبوين مسلمين ؟

ومن العجيب أن سيرة يزيد بن معاوية ليس فيها ما يشرف أحدا ، ومع ذلك فاليزيدية يعتقدون أنه إلههم المقدس .

إن اليزيدية أنفسهم يجهلون سبب تسميتهم هذه . وبعض الباحثين نسبهم إلى يزيد ابن أنيسة . وقد ذكر الشهرستانى فى فرق الخوارج اليزيدية فقال : « أصحاب يزيد ابن أنيسة ؛ الذى قال بتولى المحكمة الأولى قبل الأزارقة ، وتبرأ ممن بعدهم إلا الإباضية فإنه يتولاهم . وزعم أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم ، وينزل عليه كتابا قد كتب فى السماء، وينزل عليه جملة واحدة، ويترك شريعة المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام، ويكون على ملة الصابئة المذكورة فى القرآن ؛ وليست هي الصابئة الموجودة بحران وواسط » .

ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن اليزيدية ينتسبون إلى مدينة يزد أو يزدان الفارسية ، وهى بمعنى الله . أو « إيزِد » ومعناها «خليق بالعبادة» وتطلق فى دين المجوس على الملائكة التى تتوسط بين الله والبشر ، وتنقل مشيئته إليهم .

وكما اختلف الباحثون فى سبب تسمية هذه الطائفة باليزيدية ، كذلك اختلفوا فى أصل دينهم ؛ فاليزيدية أنفسهم لهم فى هذا الباب اعتقادات قد اشتبكت على مر الأيام بكثير من الخرافات والأساطير حتى تعذر على الباحث معرفة الأصل الذى ترجع إليه هذه الديانة . وفى رواية لليزيدية تصريح بأنهم من نسل آدم فقط : لا نتيجة لاجتماعه من حواء، قالوا[1] « وبعد مدة من الزمان لما رأى آدم وحواء أن التناسل يصير بمشاركة الذكر مع الأنثى ، فآدم كان يقول النسل هو منى . وهكذا حواء كانت تقول النسل منى، وعلى هذا صار النزاع بينهما . وبعد البحث الدقيق صار الرأى والاتفاق بينهما على أن كل واحد منهما يلقى شهوته فى جرة ، وهكذا عملا وختما الجرتين إلى مدة تسعة أشهر . وعند نهاية التسعة أشهر فتح آدم جرته فطلع بها ولدان : ذكر وأنثى ، واسمهما : شيث ، وهورية ، ومنهما تناسلت الأمة اليزيدية. ولما فتحت جرة حواء إذا بها دود عفن كريه الرائحة وسائر الحشرات النجسة . وأنبع الله لآدم ثديين وأرضعهما مدة سنتين ، ولهذا صار للرجل أيضاً

---

(١) اليزيدية قديما وحديثا — معتقدات اليزيديين ص ١٥ ط الجامعة الأمريكية — بيروت سنة ١٩٣٤ م .

أثداء . وبعد هذا ولدت حواء ولدين: ذكرا ، وأنثى، واسمهما : قاين ، وقليومة . ومنهما تناسلت باقى الطوائف مثل النصارى . واليهود ، والإسماعيليين» بينما نجد رواية أخرى لهم؛ وقد مرت بنا ؛ تصرح بأن مؤسس ديانتهم هو يزيد بن معاوية . والحق أن اليزيدية خليط من عناصر وثنية قديمة ، وعناصر إيرانية زردشتية ، وأخرى يهودية ونصرانية وإسلامية.

وهم يؤمنون بوجود إله أكبر خالق لهذا الكون ، إلا أنه الآن لا يعنى بشئونه بعد أن فوض أمر تدبيره وإدارته إلى مساعده ومنفذ مشيئته « مَلَكَ طاووس » الذى يرتفع فى أذهان اليزيدية إلى مرتبة الألوهية حتى إنهم يسبحونه ويضرعون إليه ، ويكادون ينسون من أجله الإله الأكبر المتعالى عن هذا العالم . وملك طاووس هذا هو الملاك الأعظم الذى عصى الله فى بدء الخليقة فعاقبه الله على خطيئته فظل يبكى سبعة آلاف سنة حتى ملأ سبع جرار من دموعه وألقاها فى جهنم فأطفأ نارها . فأعاده الله إلى مركزه الرفيع فى إدارة الكون . ولذلك فإن أهل الديانات الأخرى يخطئون فى نظر اليزيدية حين يَدْعون هذا الملاك الأعظم « الشيطان » ويلعنونه ويعتقدون أنه خالق الشر ، والأحرى بهم أن يسبحوه ويمجدوه ، إن لم يكن حبا له وتعظيما لذاته ، فعلى الأقل دفعا لغضبه وأذاه . وهو المدبر الحقيقى لهذا العالم ، قادر على أن ينزل بالبشر جميع أنواع العذاب . ومن هنا نرى أن شيطان اليزيدية يختلف عن شيطان سائر الأديان .

أما كيف دُعى هذا الملاك الأعظم مَلَكَ طاووس ، ومثل بشكل هذا الطائر : فهذا من الأمور الغامضة التى لم يستطع الباحثون الكشف عنها ، فقال بعضهم : إن طاووس محرف عن « تموز » أحد آلهة البابليين ، إلا أن أكثرهم لا يخرجونه عن الأصل العربى، وإن كانوا يختلفون فى تعليل سبب إطلاقه على الملاك الأعظم ، وتمثيل هذا الملاك بشكل طاووس .

فمن هؤلاء الباحثين من أرجع هذه التسمية إلى ما ورد فى روايات المسلمين عن غواية الشيطان لآدم وحواء ، واشتراك الطاووس بها كواسطة بين الشيطان والحية.

* * *

أما نبي هذه الديانة فهو الشيخ عادى الذي يروى عنه اليزيدية أخبارا وروايات عديدة ويرفعونه أحيانا إلى مافوق درجة النبوة والقداسة حتى يتحد بملك طاووس ويشترك معه فى الألوهية . ومن هذه الروايات ماينطبق على أحد شيوخ المسلمين ومتصوفيهم الشيخ عدى بن مسافر ، والمعروف أن الشيخ عديا ولد قرب بعلبك فى الشام ، ثم رحل إلى الجبال الواقعة شرقى الموصل حيث بنى له زاوية ، وجمع حوله طلبته ومريديه ، فعظمت شهرته ، وعلا صيته إلى أن توفى سنة ٥٥٥ هـ وقيل سنة ٥٥٧ هـ ودفن بزاويته فى « الشيخان » ، وفيه يقول ابن خلكان : « سار ذكره فى الآفاق وتبعه خلق كثير ، وجاز حسن اعتقادهم فيه الحدّ حتى جعلوه قبلتهم التى يصلون إليها ، وذخيرتهم فى الآخرة التى يعوّلون عليها » .

على أننا إذا رجعنا إلى الكتب التى خلّفها هذا الشيخ المتصوف ، أو التعاليم الدينية التى نشرها تلامذته وقابلناها بمعتقدات اليزيدية لم نجد بينهما علاقة خاصة تسترعى الانتباه . فشخصية الشيخ عادى وعلاقته بعدى بن مسافر غامضة جدا ، ومع ذلك فإن اليزيدية يقدسون ذكره ويحجون لقبره فى « الشيخان » حيث يدور قسم كبير من حياتهم الدينية والقومية .

ومن الشخصيات المقدسية عندهم : شخصية منصور الحلاج ، والشيخ عبد القادر الكيلانى ، والحسن البصرى ، والشيخ المنسوب إلى الحسن البصرى يقوم بخدمة ضريح الشيخ عادى ، وله الفتوى ، ولا يُمضى شىء إلا بعد موافقته .

واليزيدية لايأكلون الخس ، لأنهم يزعمون أن الشيخ عادى مر ذات يوم ببستان مزروع خسا ، فسأل عن صاحب البستان فلم يردّ عليه أحد ، ولعله طلب شيئا من الخس فلم يعطه أحد . ومن ذلك اليوم حرم عادى أكل الخس ، فهو محرم على كل يزيدى ، بل إنهم لايقربون من الأرض التى يزرع بها ، ولا يأكلون لحم الغزال لزعمهم أن عيونه تشبه عيون الشيخ عادى .

ويقولون إن الصلاة بالقلب وبالسر ، لذلك لايحددون مواعيد وفرائض للصلاة ، ولم يضعوا لها نظاما معينا ، ويحللون شرب الخمر .

• • •

ولما أرادت الدولة العلية أن تجندهم رفضوا رفضا باتا ، وبنوا رفضهم على أسباب منها :

١ — من واجب كل يزيدى أن يزور ضريح الشيخ عادى مرة فى كل سنة وذلك من ١٢ أيلول (سبتمبر) إلى عشرين منه ، وإذا لم يقم بهذه الزيارة فهو فى نظرهم كافر .

٢ — يجب على كل يزيدى كل يوم وقت طلوع الشمس أن يقف فى موضع شروقها بشرط أن لايراه مسلم ، وإذا لم يفعل ذلك فهو كافر .

٣ — ينبغى على اليزيدى ألا يسمع صلاة المسلم لأن فيها ما يتعارض مع العقيدة اليزيدية ، وهى الاستعاذة من الشيطان . وعلى حسب تعاليم الديانة اليزيدية يجب قتل المسلم ، أو أن يقتل اليزيدى نفسه ، أو يصوم أسبوعا كفارة ويذبح ذبيحة لوجه الملك طاووس المكرم .

٤ — لكى يؤدى اليزيدى فريضة الصيام يجب أن يكون فى موطنه . ولا يصح صيامه فى أى مكان آخر ، لأنه ينبغى عليه أن يذهب فى صباح كل يوم من أيام صيامه إلى شيخه ليعلن أمامه أنه صائم . وفى المساء يذهب إليه أيضا ليتناول الخمر المقدس من يده قبل الإفطار . وإذا أهمل هذا فلا يقبل صيامه واعتبر كافرا .

٥ — إذا سافر يزيدى إلى خارج بلاده وأمضى فى غيابه نحو سنة أو أزيد فإن امرأته تحرم عليه ولا يمكنه الزواج من غيرها .

٦ — على كل يزيدي اشترى ثوبا جديدا أن يعمده بماء زمزم المبارك الموجود بحضرة الشيخ عادى ، وإذا لم يفعل ذلك فقد كفر .

٧ — غير مرخص لليزيدى أن يلبس ثوبا كحليا قط ، ولا أن يتمشط بمشط مسلم أو يهودى ، ولا أن يحلق رأسه بموسى هؤلاء . وإذا اضطر إلى الحلاقة بهذا الموسى فعليه أن يغسله أولا بماء الشيخ عادى . وإذا لم يفعل ذلك فهو كافر .

وبناء على هذا أعفتهم الدولة من الخدمة العسكرية ، واكتفت بأن تأخذ من كل منهم مبلغا من المال .

* * *

واليزيدية يؤمنون بالتناسخ ، وبالحلول . ولهم كتابان مقدسان :

أحدهما اسمه الجلوة فيه وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب .

والثانى اسمه مصحف رش ، أى الكتاب الأسود ، فيه قصة خلق العالم ، وعقائد اليزيدية وما حلّل لهم وما حرّم عليهم . ومما جاء فيه :

« فى البداية خلق الله درة بيضاء من سره العزيز . وخلق طيرا اسمه الفخر ، وجعل الدرة فوق ظهره ، وسكن عليها أربعين ألف سنة . وخلق الأيام السبعة . وفى أول يوم خلق ملكا اسمه عزرائيل ، وهو ملك الشمس ، أى شمس الدين ، وسره من سر المسيح . ويوم الاثنين خلق الملك دردائيل وهو الملك فخر الدين ، أى ملك القمر . ويوم الثلاثاء خلق الملك إسرافائيل وهو ملك أمادين . ويوم الأربعاء خلق الملك ميخائيل وهو الشيخ أبو بكر . ويوم الخميس خلق زرزائيل وهو سجادين[1] . ويوم الجمعة خلق الملك شمخائيل وهو نصر الدين . ويوم السبت خلق الملك نورائيل وهو يزيد ملك طاووس ، وجعله رئيسا عليهم . وبعده خلق صورة السبع سموات والأرض والشمس . وسبع طبقات الأرض والقمر ، وخلق الإنسان والطيور والوحوش ووضعهم فى جيوب الخرقة . وطلع من الدّرّة ومعه ملائكة وصار صياح . سبحت عظمة الدرة وانفصلت وصارت أربعة بروج ، ومن بطنها خرج الماء وصار البحر . وكانت الدرة دائرة بلا قرار . وخلق جبرائيل بصورة الطير ، وأرسل بيده

(١) رئيس الجراد .

وصنع أربع قرانى : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب . ثم خلق مركبا ونزل بالمركب ثلاثين ألف سنة » .

« بعد صاح فى جبل لا ألش بالدنيا فجمد الحجر ، وصارت الدنيا أرضا ، وبقيت تهتز ، فأمر جبرائيل فأحضر قطعتين من الدرة البيضاء ، ووضع الواحدة تحت الأرض ، والأخرى فى باب السماء فسكنت . ثم جعل منهم الشمس والقمر ، وخلق النجوم من فتات الدرة البيضاء ، وعلقهم بالسماء للزينة » .

وجاء فى موضع آخر « ولازم على كل يزيدى فى كل صباح أن يقوم أمام الرب ، وأن يسجد بعض الأوقات قدام ربه بطلوع الشمس ، ويدعو قائلا : آمين ، آمين ، الله يبارك الدين . يا ألله ، ياداأم ، يا غفور ، ياموجود ، يافتاح ، يارزاق ، يا مدبر الكون ، يا ساتر ، ياأمدين ، ياشمس الدين ، يافخر الدين . . . ياربى أنت تبارك الدين ، ياربى على شأنك ، على مكانك ، على سلطانك ، على عظمتك أدعو وأسجد . أنت كريمى ، أنت دوامى ، أنت موجود ، أنت معبود » .

ولهم أعياد ومواسم كثيرة يقيمون فيها الاحتفالات ، وينحرون الذبائح ، ويأكلون ويشربون الخمر ، ويرقصون ويغنون . نذكر منها عيد الخضر إلياس فى يوم الخميس الأول من شهر شباط « فبراير » ويصوم بعضهم ثلاثة أيام ، وبعضهم يوما واحدا . وعيد القربان وهو يقابل عيد الأضحى عند المسلمين ويسبقه بيومين . ويجب على كل يزيدى أن يذبح فى هذا اليوم ذبيحة . ويحتفلون بليلة القدر ولا ينامون فى خلالها بل يظلون ساهرين إلى الصباح ، ويتبادلون الولائم ، ويزعمون أن الملائكة يحضرون فى تلك الليلة من السماء إلى الأرض ، ويثبتون فى دفاتر الأرواح من يموت فى تلك السنة ، ومن يولد ، ولاينامون طوال اليوم التالى لهذه الليلة ، وإنما كان سهرهم فى ليلة القدر إكراما لملك الموت ، وعدم نومهم فى اليوم التالى لها إكراما لملك الشمس .

وكان دينهم يحرم عليهم تلقى العلم ، إلا أن رئيسهم إسماعيل جول قد ألغى هذا الحكم وأباح لهم دخول المدارس .

الفصل الثانى

البابية أو البهائية[1]

من هو مؤسس الديانة البهائية ؟

هو على محمد المولود بشيراز سنة ١٨١٩ م ، كان أبوه محمد رضا الشيرازى ينتسب إلى بيت النبوة ، وقد توفى قبل أن يبلغ الولد سن الفطام ، فكفله خاله على الشيرازى الذى كان يشتغل بالتجارة .

ولم يكن للغلام ميل إلى الدراسة ، إلا أنه تحت ضغط خاله تعلم قليلا من اللغة العربية ومن النحو الفارسى . وقد أظهر براعة مدهشة فى الخط ، فكان أعجوبة أهل عصره فى هذا الفن .

ثم أشركه خاله معه فى التجارة ، وانتقلا معا إلى ميناء أبى شهر ، وكان محمد إذ ذاك فى السابعة عشرة من عمره ، وما لبث أن أظهر براعة فى التجارة ، فاستقل عن خاله ، وحاز مركزا تجاريا مرموقا ، وكسب شهرة تجارية واسعة .

وكان مع اشتغاله بالتجارة ينفق وقتا طويلا فى دراسة العلوم الدينية والرياضيات . ثم اشتغل بالروحانيات ، وأخذ يعمل على إذلال نفسه ، فكان يسهر الليل ، وفى النهار يقف تحت أشعة الشمس المحرقة . فاعتراه بسبب ذلك وجوم وذهول . وتأثرت قواه العقلية من الخلوة وما فيها من العزلة ، ومن فرط السهر وإدمان الوقوف فى مواجهة قرص الشمس ، متحملا حرارتها التى تبلغ فى مدينة أبى شهر ٤٢ درجة ، وقد لاحظ عليه خاله شذوذا فى تفكيره ، وداخله الشك فيما يصدر منه من أقوال وأفعال . فأسدى إليه النصيحة تلو

---

(١) البابيون تأليف عبد الرزاق الحسنى .

النصيحة ليتجنب تلك الحركات ، مشفقا عليه من أن تتطور به الحال إلى نتيجة لا تحمد عقباها . وقد أشار عليه الأطباء بالسفر إلى كربلا والنجف حيث الهواء النقى ، وعسى أن ينقطع عن التفكير فيما كان بصدده . ولما رحل كان فى العشرين من عمره.

* * *

ولما وصل «على » إلى كربلاء أخذ يدرس على بعض العلماء . وكانت الأفكار الباطنية منتشرة بين فريق من النازلين بتلك المدينة . ومن أشهر رجالها فى ذلك الوقت الشيخ أحمد الأحسائى مؤسس فرقة المشيخية. وتلميذه كاظم الرشتى مؤسس الفرقة الكشفية .

ظل « على » يتردد على دروس كاظم الرشتى . ثم انقطع فجأة وتغيب ردحا من الزمن . وكان قد اتفق مع بعض أصحابه على السفر إلى الكوفة والإقامة فى مسجد الإمام علىّ منقطعين للرياضة مدة أربعين يوما . وبعد انقضاء هذه المدة غادر المسجد وهو فى حالة غير طبيعية ، وعاد إلى مجلس الرشتى وهو شارد الذهن ، وفى حالة ذهول . وأخذ يتكلم بألفاظ عدها تلامذة الرشتى خارجة عن منهج الشريعة ، ومخالفة لقواعد السنة النبوية . فلاطفوه وجاملوه أولا ، وجفوه وهجروه أخيرا . فإذا به يدعو الناس إلى نفسه ، ويظهر من الزهد والتقشف ما أمال إليه كثيرا من بسطاء العقول وضعفاء الأحلام .

وكان يخاطب المقربين إليه بأقوال غامضة مثل «فادخلوا البيوت من أبوابها» وكثيراً ما كان يسمعهم الحديث المشهور « أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا » يعنى بذلك أن الوصول إلى الله تبارك وتعالى ممتنع ومحال لأن الطريق مسدود ، والطلب مردود إلا عن طريق الرسالة والنبوة والولاية . ولما كان الوصول إلى تلك المراتب صعب ومتعذر ، ولا يمكن ذلك إلا بالوساطة ، فأنا تلك الواسطة الكبرى ، وكما أنه لايجوز دخول البيت إلا من الباب ، فأناَ ذلك الباب . فعندئذ سمى نفسه « الباب » وما كان يشير بعد ذلك إلى نفسه إلا بلقب الباب ، وترك اسمه الأصلى ، وهذا هو سبب تسميته بالباب ، وأتباعه بالبابية .

* * *

وقد بدأ دعوته سنة ١٨٤٤ م ، وكان أول المؤمنين به : الملا حسين بشروئى ، الذى لبى الدعوة فى الليلة الخامسة من جمادى الأولى سنة ١٢٦٠ هـ = ٢٣ مارس سنة ١٨٤٤ م ، فسماه «باب الأبواب» . واعتبروا هذا اليوم عيدا سموه «عيد المبعث» إذ أظهر فيه الباب دعوته ،ورفع بها الصوت جهارا . وكان عمره إذ ذاك خمسا وعشرين سنة ، وأربعة أشهر ، وأربعة أيام . وما زال البابيون يحترمون هذا اليوم ويقدسونه ، ويحرمون فيه تعاطى الأشغال .

حروف حى :

استطاع الباب علىّ أن يجمع حوله ثمانية عشر شخصا سماهم « حروف حى » فحرف الحاء يعادل رقم ٨ بالحروف الأبجدية ، والياء يساوى ١٠ ، ومجموع الحرفين (١٨) ثم ألقى على هؤلاء مبادئه وتعاليم دعوته ، وهذه أسماء رجاله ، أو أقانيمه الثمانية عشر :

(١) الملا حسين البشروئى (٢) محمد حسن ، أخوه (٣) محمد باقر الصغير ، ابن عمه (٤) الملا حسين على البسطامى (٥) الملا خدا بخشى القوجانى المعروف بملا على الرازى (٦) الملا حسين باجستانى (٩) سعيد الهندى (١٠) الملا محمد الخوفى (١١) الملا جليل أرومى (١٢) الملا أحمد أبدالى المراغى (١٣) الملا باقر التبريزى (١٤) الملا يوسف الأردبيلى (١٥) المرزه هادى القزوينى (١٦) المرزه محمد على القزوينى (١٧) الطاهرة المعروفة بقرة العين (١٨) محمد على البافروشى المعروف بالقدوس .

ولما كان الملا حسين البشروئى ؛ نسبة إلى مدينة بشرويه من أعمال خراسان ؛ أول من آمن بالباب ؛ التفت الباب إليه وقال : « يامن هو أول من آمن بى حقا . إننى أنا باب الله ، وأنت باب الباب ، ولابد أن يؤمن بى ثمانى عشرة نفسا بكامل رغبتهم دون ضغط أو إكراه ، ويعترفون برسالتى ، وسينشدنى كل منهم على انفراد ، وعند ما يتم عددهم يجب انتخاب أحدهم لمرافقتى فى الحج إلى مكة والمدينة . وهناك أبلغ الرسالة الإلهية إلى شريف مكة ، ثم أرجع إلى الكوفة ، وفى مسجد تلك المدينة أظهر الأمر . وعليك الآن أن تكتم عن أصحابك ، وعن كل شخص آخر . وواصل الانقطاع فى مسجد

إيلخانى ، وواظب على الدرس فيه . واحذر أن تظهر مكنون هذا السر من سلوكك أو هيئتك إلى وقت مفارقتى للحجاز . وسأعين لكل من الثمانية عشر رجلا رسالته ومهمته . وسأعرفهم كيفية تبليغ كلمة الله وإحياء النفوس » .

وسافر الملاحسين إلى أصفهان فكاشان،فقم،فطهران،فخراسان للقيام بواجب الدعوة. كما سافر الملا على البسطامى إلى كربلاء والنجف . وأما زملاؤهما بقيـة الأقانيم فإنهم سافروا إلى أنحاء إيران المختلفة . وفى وقت توديع الباب لحروف الحى أمرهم فردا فردا أن يدونوا فى قائمة اسم كل مؤمن اعتنق الدعوة . وقال لهم : سوف أبوب هذه الأسماء إلى ثمانية عشر بابا ، وأجعل كل باب يحتوى على أسماء تسعة عشر شخصا . فيكون كل باب فى مجموعه واحدا . فإذا أضيفت هذه الأسماء فى أبوابها الثمانية عشر إلى الواحد الأول الذى تكون من اسمى وأسماء الحروف الثمانية عشر التى هى حروف الحى ؛ فإنها تكون عدد كل شىء . وسأذكر أسماء جميع المؤمنين فى لوح الله حتى إن محبوب قلوبنا ينزل عليهم بركاته التى لاتحصى فى اليوم الذى يستقر فيه عرش مجده ، ويعدّهم من سكان جنته .

* * *

وبما أن عقيدة الشيعة الإمامية أن ظهور المهدى المنتظر يكون من مكة بين الركن والمقام ؛ أعلن الباب عزمه عَلَى السفر إلى الحجاز ، وركب البحر إلى جدة ومعه القدوس الملا محمد على الباقروشى ، وخادمه الحبشى : قائلا « وسأزور مكة ، وهناك أتمم المأمورية التى أمرنى بها الله » .

وقال بعضهم : إن السفينة التى استقلها الباب رست فى ميناء أبى شهر ، فتذكر الباب وطنه وحن إليه ، فغادر السفينة وأجل سفره إلى الحجاز ، وآثر البقاء فى وطنه وتفقد أحوال معارفه وأحبته ، ثم غادرها إلى شيراز .

أما البابية فيقولون إن الباب قصد الحجاز سنة ١٨٤٤ ومعه أقنومه الثامن عشر « القدوس » وخادمه الحبشى ، فأحرم فى جدة وبلغ مكة على ظهر الجمل . وبعد أن أدى

مناسك الحج كتب رسالة إلى شريف مكة يوضح فيها دعوته . ولما كان الشريف المذكور منهمكا فى الأمور الدنيوية والمقاصد المادية ، لم يهتم برسالة الباب . ولم يُلَبِّ النداء الإلهى . وأن الباب قصد بعد ذلك المدينة المنورة فزار قبر الرسول الأعظم ، ثم قفل عائدا إلى جدة فأبى شهر .

وقال بعض مؤرخى إيران « . . . وقيل إن الباب سافر إلى مكة حقيقة ، ولكنه هدأ هوسه هناك ، وخاف فلم يجرؤ على إظهار دعوته » .

ويرجح كثيرون صحة هذه الرواية .

* * *

جهر الباب بدعوته فى ليلة الخامس من جمادى الأولى سنة ١٢٦٠ هـ = ١٨٤٤ م . وراح دعاته وأنصاره يعلنون تأييدهم له ، ويحرضون الناس على الانضمام تحت لوائه . ولما لم تكن هذه الحركة تتناسب والمركز الدينى لعلماء إيران ، وكانت تعاليم الباب مخالفة لأصول الدين الإسلامى الحنيف ؛ فقد قامت قيامة هؤلاء العلماء فى وجه هذه الدعوة . فنشرت الرسائل ، وألفت الكتب ، وألقيت الخطب ، وفى جميعها من التفنيد للمبادئ الجديدة ما فيها ، واستحث رجال الدين رجال الدولة على وجوب استئصال شأفة هذه البذور التى بدأت تهدد الأمن فى إيران .

ونتج عن هذه المقاومة أن مال إليه الجهلة من العوام . فلما رأى الباب ذلك أعلن أنه هو المهدى المنتظر بعد أن كانت دعوته أنه واسطة أو باب للوصول إلى الإمام المنتظر . وقال إن جسم المهدى اللطيف قد حل فى جسمه المادى وأنه يظهر الآن ليملأ الأرض قسطا وعدلا ، بعد ما ملئت ظلما وجورا .

ولم يكن فى العقائد البابية وفى تعاليمها السرية ما يمنع مثل هذا الادعاء . فالإمام مظهر من مظاهر الله فى أرضه ، وواسطة تبليغ للناس لانكشاف الحقائق له . فإذا حصل من هو فى رتبته فى الكشف فلا مانع هناك أن ينال عين الرتبة . وهذا ما دعا الباب [illegible]

يظهر بمظهر أرقى من الدعوة السابقة ، فيدعى أنه أفضل من محمد صاحب الدعوة الإسلامية العظمى ، وأن تعاليمه التى جمعها فى بيانه أفضل من تعاليم نبى المسلمين فى قرآنه . وأن محمدا إذا كان قد تحدى الناس بالإتيان بسورة من سور الفرقان المبين، فإن الباب يتحدى الجميع بالإتيان بباب من أبواب بيانه العظيم .

وقد صادفت دعوته بعض النجاح عند عدد قليل من أبناء وطنه شيراز . ولما شكا العلماء من ذلك استدعى حاكم شيراز دعاة الباب وحقق معهم فلم يخفوا عنه شيئا . فاستفتى العلماء فى شأنهم فأفتوا بكفرهم ووجوب قتلهم ؛ ولكن الوالى اكتفى بنفيهم من شيراز . وأرسل بعض جنوده إلى أبى شهر فجاءوا بالباب وعقد مجلسا من العلماء والفقهاء وأحضر الباب ليناظرهم . فانقسم العلماء فى أمره ؛ فمنهم من أفتى بقتله ، ومنهم من قال باختلال عقله . أما الوالى فقد أمر به فجروه من المجلس وأوسعوه ضربا مبرحا .

وقد هم الوالى بقتله فإذا بالباب ينكر أنه وكيل القائم الموعود ؛ أو الواسطة بينه وبين المؤمنين . فتركه الوالى مع خاله ميرزا على الشيرازى على أن يحضره فى يوم الجمعة إلى المسجد ليعلن توبته على رءوس الأشهاد . فلما حل اليوم المذكور صعد الباب على المنبر وقال :

« إنّ غضبَ الله على كل من يعتبرنى وكيلا عن الإمام أو الباب إليه . وإن غضب الله على كل من ينسب إلىّ إنكار وحدانية الله ، أو أنى أنكر نبوة محمد خاتم النبيين ، أو رسالة أى رسول من رسل الله ، أو وصاية على أمير المؤمنين ، أو أى أحد من الأئمة الذين خلفوه » .

وبذلك نجا الباب من القتل ، ولكنه مالبث أن عاود دعوته فى سنة ١٨٤٥ م ، فكتب إلى دعاته بالعراق بأنه لايستطيع التوجه إليهم كما وعدهم من قبل ، كما طلب إلى أعوانه فى إيران أن يرحلوا إلى أصفهان لمواصلة الدعوة ، فعاد الهياج إلى شيراز والتحقيق فى الموضوع .

إلا أن انتشار الهيضة فى شيراز وفتكها بالأهلين فتكا ذريعا ووفاة كثيرين من الموظفين والجند ، أجلت النظر فى أمر الباب الذى استطاع أن يفر إلى أصفهان سنة ١٨٤٦ م ، وكان دعاته قد توغلوا فى هذه الولاية مثل توغلهم فى شيراز .

وفى سنة ١٨٤٧ م أمر الشاة باعتقال الباب فى قلعة « ماه كو » فى ولاية أذربيجان بالقرب من الحدود الروسية الإيرانية العثمانية ، وكانت القلعة منيعة جدا ، إلا أن نقل الرجل إلى تلك القلعة بث الشجاعة والغيرة فى قلوب أتباعه فصاروا يجاهرون بالدعوة بعد أن كانوا يبشرون بها فى الخفاء . وأخذ عدد أتباعه يزداد يوما بعد يوم ، فنقلته الحكومة إلى قلعة « جهريق » .

ثم عقد أقطاب البابية مؤتمرا فى صحراء بدشت فى شهر رجب سنة ١٢٦٤ = ١٨٤٨ حضره واحد وثمانون قطبا من بينهم باب الباب الملا حسين البشروئى ، والحاج محمد على البافروشى الملقب بالقدوس ، وقرة العين زرين تاج التى دعيت بالطاهرة فى هذا المؤتمر ، والمرزه على حسين الذى تسمى بالبهاء .

وقد تناول المجتمعون البحث فى هذين الأمرين الرئيسيين .

أولا : إنقاذ الباب من اعتقاله ونقله إلى مكان آمن .

ثانيا : وضع حد بين مبادئ البابية والدين الإسلامى .

ففيما يتعلق بالأمر الأول تقرر إرسال المبلغين إلى النواحى ليحثوا الأحباب على زيارة الباب فى قلعة « ماه كو » مستصحبين معهم من يتسنى استصحابه من ذوى قرباهم وودهم ، وأن يجعلوا مركزهم اجتماعهم « ماه كو » حتى إذا تم منهم العدد الكافى ، طلبوا من الشاه الإفراج عن الباب ، فإن أجابهم إلى طلبهم فبها ونعمت ، وإلا هجموا على القلعة وأنقذوه بالقوة .

وأما فيما يتعلق بالأمر الثانى فقد ظهر بعد مذاكرات طويلة أن معظم المؤتمرين يعتقدون بوجوب النسخ والتجديد . ويرون أن من قوانين الحكمة الإلهية فى التشريع

الدينى أن يكون الظهور اللاحق أعظم مرتبة وأعم دائرة من سابقه ، وأن يكون كل خلف أرقى وأكمل من سلفه . فعلى هذا القياس يكون الباب أعظم مقاماً وآثارا من جميع الأنبياء الذين خلوا من قبله ، وأثبتوا له الخيار المطلق فى تغيير الأحكام وتبديلها .

وذهب قليل من الحاضرين إلى عدم جواز التصرف فى الشريعة الإسلامية ، مستندين إلى أن حضرة الباب ليس إلا مروّجا لها ومصلحا لأحكامها .

* * *

ثم دُعِيَ الباب لمناظرة علماء إيران ، فسأله أحد العلماء :

من تكون ؟ وما هو ادعاؤك ؟ وما هى الرسالة التى أتيت بها ؟ فأجاب الباب ثلاثا :

إنى أنا الموعود ، وأنا الذى دعوتموه منذ ألف سنة وتقومون عند سماع اسمه ، وكنتم تشتاقون للقائه عند مجيئه ، وتدعون الله بتعجيل ساعة ظهوره ، الحق أقول لكم إن طاعتى واجبة على أهل الشرق والغرب .

فقال أحد العلماء : إن الدعوى التى تقدمها الآن دعوى خطيرة ، فيجب أن تدعمها بالدليل القاطع .

فأجاب الباب : إن أقوى دليل وأقنعه على صحة دعوى رسول الله هو كلامه كما دال على ذلك بقوله : (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ[1]) ولقد آتانى الله هذا البرهان ، ففى ظرف يومين وليلتين أقرر أنى أقدر أن أظهر آيات توازى فى الحجم جميع القرآن .

وانتهت المناظرة بغير نتيجة .

ثم ازدادت الاضطرابات فى جميع أنحاء إيران ، وانتشرت الفتن ، وساعدت الدسائس الأجنبية على امتدادها . فقرر الشاه ناصر الدين ضرورة القضاء على هذه الفتن . فأصدر

---

(١) العنكبوت آية ٥١ .

بأمره بإعدام الباب ، ونفذ فيه حكم الإعدام فى شهر يوليو سنة ١٨٤٩ م . وقد تبرَّأ منه كاتب وحيه حسين التبرزي وانهال على الباب بالشتائم والسباب ، فأطلق سراحه . وأتى الحراس بوتدين من الحديد ودقوهما فى جدارين متقابلين ، وربطوا فيهما الباب وصاحبه محمد على الزنوزى، وأطلقوا عليهما الرصاص . وربط الجند جثتيهما وألقوهما فى خندق فبقيتا فيه حتى أكلتهما الطيور الجارحة . وكان عمر الباب يوم إعدامه إحدي وثلاثين سنة قمرية ، وسبعة أشهر ، وسبعة وعشرين يوما من يوم ميلاده بشيراز .

ولما قتل الباب زادت تعاليمه اشتهارا ، وعظم الاضطهاد على أتباعه ، وأظهر بعض رؤسائهم دعاوى مختلفة من قبيل النبوة والوصاية والولاية والمرآتية وأمثالها . فاختلفت آراؤهم ، وتشتتت أهواؤهم ، وسقط كثير منهم فى الضلالات ، وانهمك بعضهم فى المنكرات والموبقات .

وقد نقل بعض أتباع الباب جثته ودفنها على جبل الكرمل حيث يرقد عبد البهاء عباس .

* * *

كتب الباب :

من أهمها البيان العربي ؛ كتبه خلال إقامته فى قلعة «ماه كو» ورتبه على تسعة عشر واحدا . وقسم كل واحد إلى تسعة عشر بابا . فتكون أبوابه ٣٦١ بابا . وهذا العدد ينطبق على مجموع أعداد حروف كلمة « كل شيء » وقد خص الواحد الأول بنفسه ، والثمانية عشر الباقية لكبار أصحابه ؛ لكل منهم واحدا ولما كان حاصل جمع أعداد حروف « حى » إذا استخرجت بحساب الجُمَّل ١٨ ، فقد سمى أصحابه المشار إليهم حروف حى . إلا أنه لم يكتب إلا أحد عشر واحدا فقط ، وترك إكمال البيان العربى لمن يأتى بعده .

وله كتاب البيان الفارسى ، وهو صورة من البيان العربى :

وهذا بعض مما جاء فى البيان العربى :

الواحد الأول

بسم الله الأمنع الأقدس

إننى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، وإن ما دوني خلقى . قل أن يا خلقى إياى فاعبدون . قد خلقتك ورزقتك ، وأمَّنْتك ، وأحببتك ، وبعثتك وجعلتك مظهر نفسى لتتلُوَن من عندى آياتى ، ولتدعونّ كل من خلقته إلى دينى . هذا صراط عز منيع . وخلقت كل شىء لك وجعلتك من لدنا سلطانا على العالمين . وأذنت لمن يدخل فى دينى بتوحيدى ، وأقرنته بذكرك ، ثم ذكر من قد جعلته حروف الحق بإذنى ، وما قد نزل فى البيان من دينى . فإن هذا ما يدخل به الرضوان عبادى المخلصين . وإن الشمس آية من عندى ليشهدن فى كل ظهور مثل طلوعها كل عبادى المؤمنين . قد خلقتك بك ، ثم كل شىء بقولك ، أمرا من لدنا إنا كنا قادرين . وجعلتك الأول والآخر ، والظاهر والباطن ؛ إنا كنا عالمين . وما بعث على دين إلا إياك ، وما نزل من كتاب إلا عليك ، وما يبعث من دين إلا إياك ، وما ينزل من كتاب إلا عليك ، ذلك تقدير المهيمن المحبوب . وإنما البيان حجتنا ندخل من نشاء فى جنات قدس عظيم . ذلك ما يبدأ فى كل ظهور من الأمر ، أمرا من لدنا إنا كنا حاكمين . وما نبدأ من دين إلا لما يبدع من بعد ؛ وعدا علينا إنا كنا على كل قاهرين . وإنا قد جعلنا أبواب ذلك الدين عدد كل شىء مثل عدد الحول ، لكل يوم بابا ، ليدخلن كل شىء فى جنة الأعلى ، وليكونن فى كل عدد واحد ذِكْرُ حرف من حروف الأولى لله رب السموات والأرض ، رب كل شىء ، رب ما يرى وما لا يرى ، رب العالمين . وإنا قد فرضنا فى باب الأول ما قد شهد الله على نفسه على أنه لا إله إلا هو رب كل شىء . وأن ما دونه خلق له عابدون . وأن ذات حروف السبع باب الله لمن فى ملكوت السموات والأرض وما بينهما كل بآيات الله من عنده يهتدون . ثم كل باب ذكر اسم حق من لدنا ، وذكر أحد من حروف الحى ، بما رجعوا إلى الحياة الأولى ،

محمد رسول الله والذين هم شهداء من عند الله . ثم أبواب الهدى وخلقوا فى النشأة الأخرى بما وعد فى الفرقان إلى أن يظهر عدد الواحد فى الواحد الأول ، فضلا من لدنا إنا كنا فاضلين .

* * *

عقائد البهائية :

تقوم الديانة البهائية على أساس الاعتقاد بوجود إله واحد أزلى نظير مايعتقد به المسلمون . إلا أن البابيين يستمدون صفات الخالق من أساس العقيدة الباطنية التى ترى أن لكل شىء ظاهرا وباطنا ، وأن هذا الوجود مظهر من مظاهر الله . وأن الله هو النقطة الحقيقية ، وكل مافى الوجود مظهر له .

والوجود فى نظر المسلمين صادر عن الله وفعل مخلوق له . وأما عند البابية والباطنية فإنه صفة تدل على الحياة والتأثير . ومن هذه الناحية الاعتقادية يبنون كل مظاهر العمل والعبادة على أنها أمور ظاهرية تعبر عن أمر باطنى .

أما عقيدتهم فى النبى والإمام فمستمدة من عين العقيدة بالخالق . فالنبى أو الإمام فى حياته مظهر من مظاهر الله فى الأرض وارتقاؤه إلى هذه المنزلة إنما هو باستكماله صفات أخلاقية جعلته يعبر عن الأمر الواقعى ويصل إلى الحقيقة دون غيره . فمن استكمل الصفات التى استكملها النبى أو الإمام فهو أحق وأهل للتظاهر بمظهر الدعوة والتبشير . لهذا صح للباب أن يكون مظهرا من مظاهر الله فى الأرض بعد النبى .

* * *

أما عبادات البهائيين ومعاملتهم فقد وردت فى كتاب « البيان » الذى نسخه خليفة الباب وهو على حسين الملقب بالبهاء بكتابه « الأقدس » .

١ ـــ الصوم :

عند البهائيين هو الشهر التاسع عشر الذى يلى أيام الضيافة « السنة البهائية تسعة عشر

شهرا ، كل شهر تسعة عشر يوما . ومجموع ذلك ٣٦١ يوما . وبقية أيام السنة عندهم تسمى أيام الهاء ، وهم يقضون هذه الأيام فى تبادل الزيارات ومواساة الفقراء والضعفاء والأيتام وأبناء السبيل . ثم يصومون بعد ذلك شهرا كاملا ؛ أى تسعة عشر يوما ، يكون آخرها عيد النيروز ، أى ٢١ مارس « آذار » .

وفى الصيام يمتنعون عن الطعام والشراب من الشروق إلى الغروب . ويعفى من الصيام من كان دون البلوغ ، أو كان على سفر ، أو الضعيف نتيجة المرض أو الهرم . ويدخل فى ذلك الحامل والمرضع والحائض والنفساء . ولا يجب على هؤلاء القضاء»

٢ ــ الصلاة :

فرضت الصلاة على كل بهائى بالغ . وهم يؤدونها على انفراد بتسع ركعات ، ثلاثة أوقات « حين الزوال ، وفى البكور ، والآصال » متوجهين شطر مدينة عكا حيث يرقد بهاء الله ، على أن يسبق الصلاة وضوء ، وإذا انعدم الماء يذكر الإنسان عبارة « بسم الله الأطهر الأطهر » خمس مرات ، ثم يشرع فى الصلاة .

ويعفى من الصلاة من كان فى مثل الحالات التى سبق ذكرها فى الإعفاء من الصيام .

وليست عندهم صلاة جماعة إلا فى صلاة الميت ، ويتلون فى كل صلاة أدعية خاصة .

٣ ــ الحج :

أما حجهم فإلى الدار التى ولد بها مؤسس ديانتهم على محمد بشيراز ، أو إلى الدار التى نزل بها « بهاء الله حسين » خلال إقامته بالعراق ، وليس هناك وقت معين للحج .

٤ ــ الزكاة :

وقد سئل عبد البهاء عباس عن حكم الزكاة فى ديانته فأجاب :

الزكاة فى البهائية كالزكاة فى الإسلام .

• • •

وهناك تعاليم دينية أخرى منها :

١ ــ تحريم التسوّل والاستجداء ، ومنع العطاء للمتسولين مطلقا .

٢ ــ وجوب العمل على الجميع ، فلا يأكل إنسان من ثمار غيره .

٣ ــ الإصلاح الاقتصادى بين الفلاحين فى القرى .

٤ ــ تحريم المخدرات .

* * *

الزواج :

الزواج بواحدة فقط وفى كتابهم «الأقدس» التصريح بزوجتين إذا عدل بينهما . وفسر عبد البهاء عباس هذا النص بقوله : إن الزواج لا يكون بأكثر من واحدة ، لأن الزواج باثنين مقرون بشرط لا يمكن تحقيقه وهو العدالة . أما الطلاق فمكروه عندهم ، وهم يزوجون البهائى من غير البهائية ، والبهائية من غير البهائى بشرط تحرير عقد بهائي إلى جانب العقد الغير بهائى .

المواريث :

فى الشريعة البهائية يتساوى الولد مع البنت فى الميراث ، وفى كافة الحقوق ، وسن الرشد لهما واحد ، وهو الخامسة عشرة ، وغير البهائي لا يرث البهائى .

أسماء الشهور والأيام عند البهائيين :

السنة عند البهائيين تسعة عشر شهرا وهى :

(١) شهر (٢) شهر الجلال (٣) شهر الجمال (٤) شهر العظمة (٥) شهر النور (٦) شهر الرحمة (٧) شهر الكلمات (٨) شهر الكمال (٩) شهر الأسماء (١٠) شهر العزة (١١) شهر المشيئة (١٢) شهر العلم (١٣) شهر القدرة (١٤) شهر القول (١٥) شهر المسائل (١٦) شهر الشرف (١٧) شهر السلطان (١٨) شهر الملك (١٩) شهر العلاء .

أما أسماء الأيام فهى :

يوم الجلال = يوم السبت .

يوم الجمال = يوم الأحد .

يوم الكمال = يوم الاثنين .

يوم الفضال = يوم الثلاثاء .

يوم العدل = يوم الأربعاء .

يوم الاستجلال = يوم الخميس .

يوم الاستقلال = يوم الجمعة .

أعيادهم :

١ - عيد النيروز فى ٢١ آذار (مارس) .

٢ - عيد الرضوان ، يبدأ من ٢١ نيسان (أبريل) إلى ٢ آيار (مايو) وهو عيد إعلان بهاء الله دعوته فى حديقة نجيب باشا بالعراق التى سماها « حديقة الرضوان » وكان نجيب باشا والى بغداد قد حجزه فى تلك الحديقة سنة ١٨٦٣ م . فأقام بها ١٢ يوما أعلن خلالها دعوته .

٣ - عيد ميلاد مؤسس الديانة وهو أول المحرم من كل عام .

٤ - عيد ميلاد البهاء حسين على ، وهو فى اليوم الثانى من المحرم .

٥ - عيد إعلان دعوة الباب على محمد ، وهو فى اليوم الخامس من جمادى الأولى .

* * *

وبما أن الديانة البابية لم تجد رواجا بين المسلمين ، لذلك اتجه أتباعها إلى نشرها فى أوربا وأمريكا . وقد زار عبد البهاء من البلاد الأوربية : انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا . وتجول فى الولايات المتحدة الأمريكية . وقد صادفت دعوته بعض النجاح بين سكان أمريكا الشمالية . وفائدة انتشار البهائية بين المسيحيين تنحصر فى الأمور الآتية .

١ ــ تصرف المسيحيين عن ديانتهم التى تقوم على تأليه عيسى ابن مريم وتقديس الصليب .

٢ ــ تجعلهم يعترفون بوحدانية الله ، ويتركون عقيدة التثليث ، وبذلك يقتربون من المسلمين .

٣ ــ تجعلهم يعترفون بصحة الشريعة الإسلامية،وإن كانوا لا يتبعونها لأنها فى زعم البهائيين قد نسخت .

٤ ــ تجعلهم يعترفون بنبوة محمد عليه السلام .

٥ ــ تجعلهم يؤدون طقوسا دينية لاتختلف كثيرا عن الطقوس الإسلامية، وبذلك تمهد لدخولهم فى الإسلام .

٦ ــ تمحو من أذهانهم فكرة التعصب ضد الإسلام والمسلمين .

* * *

أما المسلمون فليسوا فى حاجة إلى هذه الديانة . ويكفى أن نعلم أن الإسلام الذى ظهر منذ أربعة عشر قرنا دعا الناس إلى تلقى العلوم والمعارف ، فى حين أن مؤسس الديانة البهائية دعا أتباعه إلى الابتعاد عن العلم وتجنب التعلم، وطرح الكتب فى الماء ومحو ما بها أو حرقها.ولما جاء خليفته نسخ هذا الأمر وأباح لأتباعه أن يتعلموا.وما هو مظهر التجديد فى تقسيم السنة إلى تسعة عشر شهرا ؟ وقد رأينا أنهم يقضون أيام الهاء التى تسبق صيامهم فى مواساة الفقراء وأبناء السبيل ، فكيف يتفق هذا مع منعهم العطاء للمتسولين مطلقا ؟

* * *

وبعد وفاة المرزا حسين على الملقب بالبهاء انقسم البهائيون إلى فرق هى : (١) البهائية . (٢) الأزلية ؛ نسبة إلى صبح أزل أحد أنصار الباب . (٣) البابية الخلّص الذين لم يرضخوا لأوامر من قام بعد الباب على محمد . (٤) البابية البهائية العباسية؛ أتباع

عبد البهاء عباس ، وهو ابن حسين على الملقب بالبهاء ، وقد أطلق على نفسه عبد البهاء ، ولد سنة ١٨٤٤ ، ومات سنة ١٩٢١ . (٥) الناقضون. وهم أتباع محمد على أخى العباس . ويطلق المؤرخون اسم « المارقين » على أتباع المرزا عباس ، واسم « الناقضين » على أتباع محمد على .

وكل فريق يؤيد دعواه ويكفر من عداه . فاعتزلوا المعاشرة وحرموا معاملة بعضهم لبعض . وكانت عداوة كل منهم للآخر أشد من عداوتهم جميعا لمن طعن فى معتقداتهم وقال ببطلان دعواهم .

الباب الثالث

المسلمون المعاصرون

امتاز القرن التاسع عشر الميلادى بظهور حركات دينية بين المسلمين . فقامت الحركة القاديانية فى الهند ، والبابية فى إيران ، والوهابية فى بلاد العرب ، والمهدوية فى السودان.

وقد تكلمنا عن البابية ، أما الوهابية فكانت دعوتها الاتجاه بالإسلام إلى ما كان عليه فى القرن الأول فى حين أن المهدوية قامت على اعتقاد أن مؤسسها هو المهدى المنتظر. وقد انتهت هذه الحركة فى نهاية القرن ولم يعد لها وجود. لذلك سنتكلم عن الحركة القاديانية لأنها ما زالت قائمة ، ولها كتب مطبوعة يمكن الرجوع إليها .

الفصل الأول

الحركة القاديانية

تنتسب الطائفة القاديانية إلى مدينة قاديان بالهند ، وأحيانا يطلق عليهم اسم « الأحمدية » لانتسابهم فى مذهبهم إلى رجل اسمه « غلام أحمد » أى عبد أحمد النبى عليه السلام .

ولد غلام أحمد سنة ١٨٣٥ م ، بمدينة قاديان ، وانكب منذ صغره على دراسة القرآن والحديث ، والتعبد والتفكير فى أمور الدين .

وقد ادّعى غلام أحمد أنه المسيح المعهود ، والمهدى الموعود فى وقت واحد. ويستند أتباعه فى الإيمان به إلى ما روى فى صحيح البخارى : « أَنَّ المَهْدِيَّ يَظْهَرُ فِي شَرْقِي مَنَارَةِ دِمَشْقَ ، وَأَنَّ المَسِيحَ يُصَلِّي خَلْفَهُ » مع قول النبى صلى الله عليه وسلم : « كَيْفَ بِكُمْ وَبِابْنِ مَرْيَمَ فِيكُمْ ؟ » .

ويقولون إن غلام أحمد وإن كان هنديا إلا أنه إيرانى الأصل؛هاجر آباؤه إلى الهند منذ مئات السنين . وإيران هى الموطن الصحيح لسلمان الفارسى ، وقد صح الحديث النبوى فيه « سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ » .

وفى سنة ١٣٤٤هـ= ١٨٩٦ وجه غلام أحمد رسالة إلى علماء الهند وغيرها من البلاد الإسلامية جاء فيها :

« إن الله[1] قد بعثنى مجددا على رأس هذه المائة ، واختصنى عبداً لمصالح العامة ، وأعطانى علوما ومعارف تجب لإصلاح هذه الأمة ، ووهب لى من لدنه علما حيا لإتمام الحجة على الكفرة الفجرة ، وجعلنى من المكلَّمين الملهمين ، وأكمل على نِعَمَهُ ، وأتم تفَضُّلهُ ، وسمانى المسيح ابن مريم بالفضل والرحمة ، وقدَّر بينى وبينه تشابه الفطرة كالجوهرين من المادة الواحدة ، ووهب لى علوما مقدسة نقية ، ومعارف صافية جلية ، وعلمنى مالم يعلم غيرى من المعاصرين ، وصب فى قلبى مالم يحيطوا بها علما ونورا لم يمسه أحد منهم ، وجعلنى من المنعمين » .

ومن أجلِّ آلائه أنه استودعنى سره الذى يكشف للأولياء ، والروح الذى لا ينفخ إلا فى أهل الاصطفاء . وأعطانى كل مايعطى لأهل الموالاة والولاء ، وصافاني ووالاني ، وشرح صدرى ، وأتم بدرى . وأخبرنى بأكثر ماهو مزمع عليه في سابق علمه،وصبغنى بصبغة حبه ، وهداني طرق إسلامه وسلمه ، وأخرجنى من المحجوبين » .

« ومن آلائه أنه خاطبني وقال:أنت وجيه فى حضرتى، اخترتك لنفسى. وقال:أنت

---

(١) مكتوب أحمد . طبع لجنة النحرير للك الحديد سنة ١٩٥٩ .

منى بمنزلة لا يعلمها الخلق . وقال أنت منى بمنزلة توحيدى وتفريدى ، وقال : يا أحمد ، أنت مرادى ومعى ، يحمدك الله من عرشه ، وقال : أنت عيسى الذى لا يضاع وقته ، كمثلك در لا يضاع ، جَرِيُّ الله فى حلل الأنبياء ، وقال: قل إنى أمرت وأنا أول المؤمنين وقال : اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ـ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، وقال : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

« أيها الكرام : إن الفتن اشتدت ، والأرض فسدت ، والمفاسد كثرت ، وعلا في الأرض حزب المتنصِّرينَ ، وقيل لهم مراراً لا تجعلوا ميتا إلها غفارا ، واتقوا الله محاسبا قهارا ، فما خافوا الله وأصروا على كفرهم متشددين ، هنالك اقتضت أحديته ، وقضت غيرته أن يكسر صليبهم ، ويبطل أكاذيبهم ، ويوهن كيد الخائنين » .

« فكلمنى ونادانى وقال: إنى مرسلك إلى قوم مفسدين ، وإنى جاعلك للناس إماماً وإنى مستخلفك إكراما كما جرت سُنَّتى فى الأولين . وخاطبنى وقال : إنك أنت المسيح ابن مريم وأُرْسلت ليتم ما وعد من قبل ربك الأكرم ، إن وعده كان مفعولا ، وهو أصدق الصادقين » .

« وأخبرنى أن عيسى نبى الله قد مات ، ورفع من هذه الدنيا ، ولقى الأموات ، وما كان من الراجعين ، بل قضى عليه الموت وأمسكه ، ووافاه الأجل وأدركه ؛ فما كان له أن ينزل إلا بروزا كالسابقين ، وقال سبحانه: إنك أنت هو فى حلل البروز ، وهذا هو الوعد الحق الذى كان كالسر المرموز ، فاصدع بما تؤمر ، ولا تخف ألسنة الجاهلين ، وكذلك جرت سنة الله فى المتقدمين » .

« فلما أخبرت عن هذا قومى قامت علماؤهم للعنى ولومى ، وكفرونى قبل أن يحيطوا بقولى ويزنوا حولى ، وقالوا : دجال ومن المرتدين . . . وقال كبيرهم الذى أفتى ، وأغوى الناس وأغرى ، إن هؤلاء كفرة فجرة ، فلا يسلم عليهم أحد ، ولا يتبع جنازتهم ، ولا يدفنون فى مقابر المسلمين »

ثم عرّض غلام أحمد بالعلماء فقال :

« وهم يقرءون كتاب الله ثم ينسون ماقرءوا ، ولا يتدبرون كلِمَ الله بل ينبذونها وراء ظهورهم وما كانوا ممعنين . والعجب كل العجب أنهم يقولون إنا آمنا بآيات الله ثم لايؤمنون ، ويقولون إنا نتبع صحف الله ثم لايتبعون؛ ألا يقرءون فى الكتاب الأعلى ما قال الله فى عيسى ؟ إذ قال (يَاعِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ[1]) ، وقال : (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي[2]) وما قال إنى محييك ، فمن أين علم حياة المسيح بعد موته الصحيح ؟ يؤمنون بأنه لقى الأموات ، ثم يقولون ما مات ، تلك كلم متهافتة متناقضة ، لاينطق بها إلا الذى ضلت حواسه ، وغرب عقله وقياسه » .

« أليس الله بقادر على أن يجتبى مثلى بعنايته ؟ ويعطى دراية من درايته؟ ولله أسرار فى أنبائه ، وحكم تحت قضائه » .

« ياعباد الله ! اسمعوا ثم فكّروا ، ثم اقبلوا إن كنتم طالبين . قد مات نبى الله عيسى ، وأخبرنا عن موته خير الخلق وسيد الورى ، وما جاء لفظ رجوع المسيح فى نبإٍ خير البرية ، بل لفظ النزول إلى هذه الأمة ، وشتان بين الرجوع ، والنزول عند أهل المعرفة » .

« واعلموا أن قرب الله ليس إرثا مقبوضا لأحد ، بل تداول هذه الأيام من أمر رب صمد ، يلقى الروح على من يشاء ، وكذلك تقتضى العظمة والكبرياء » .

« وبعزة ربى وجلاله لست بكافر ولا معتد من أقواله ، ولا مرتد ، ولا من الملحدين بل جاءكم الحق فلا تعرضوا عن الحق كارهين . وقد تقوّى مذهبنا بتظاهر الأحاديث والفرقان ، ثم بشهادة الأئمة وأهل العرفان . ثم بالعقل الذى هو مدار التكاليف الشرعية ، ثم بالإلهام المتواتر اليقينى عن حضرة العزة . فكيف نرجع إلى الظن بعد اليقين ؟ » .

« وقد علمتم أن المسيح الموعود يكسر الصليب المعضود . فهذا هو الزمان إن كنتم

(١) آل عمران آية ٥٥ . (٢) المائدة آية ١١٧ .

موقنين أما ترون كيف يُعْلَى الصليب ؟ وكيف تُفْشَى فى شأنه الأكاذيب؟ وإلى أى حدود بلغ الأمر ، وكثر الخنزير والخمر ؟ وديس الإسلام تحت أقدام المُغْوين المفسدين ؟ أليس فى أحاديث خير الكائنات وأفضل الرسل ونخبة المخلوقات أن المسيح الموعود لايجىء إلا عند غلبة الصليب وفتنها الموّاجة فى الجهات ؟ فهذا هو الأصل المحكم لمعرفة وقت المسيح ومن أعظم العلامات. فإن كنتم تظنون أن المسيح ماجاء على رأس هذه المائة وفتن النصارى لم تبلغ إلى غايتها المقصودة ؛ فلزمكم أن تعتقدوا بامتداد هذه الفتن إلى رأس المائة الثانية ، أو على رأس مائة أخرى من المئين الآتية البعيدة، فلو كان عمر فتن النصارى إلى هذه الأزمنة الطويلة ، فما بال الإسلام إلى تلك المدة يامعشر المتفرسين ؟ أرضيتم أن تتزايد فتن الدجالين القسيسين؟ وتمتد إلى مائتين ومئين؟ فإن غلبتهم إلى أيام ظهور المسيح كما جاء بالبيان الصريح فى أنباء خير المرسلين ، فما تأمرون فى هذه القضية ؟ أترضون بأن يمهلهم الله لإغواء الناس إلى تلك المدة الطويلة ؟ » .

« اعلموا أن وقت ظهور المسيح عند الله هو وقت ظهور فتن الصليب، ولأجل ذلك قيل : هو يكسر الصليب » .

« وإنى قد بلغت كما أمرت ، وصدعت بما ألهمت ، فالآن لاعذر لجاحد » .

« وأما ماجاء فى حديث خير الأنبياء من ذكر دمشق وغيره من الأنباء ، فأكثره استعارات ومجازات ، ثم من الممكن أن ننزل بساحة دمشق ، أو أحد من أتباعنا المخلصين وما جاء فى الحديث لفظ النزول من السماء ليرتاب أحد من المرتابين » .

« وقد تفردت بفضل الله بكشوف صادقة ، ورؤيا صالحة ، ومكالمات إلهية، وكلمات إلهامية ، وعلوم نافعة ، وزادنى ربى بسطة فى العلم والدين ، وأرسلنى مجددا لهذه المائة ، وسمانى عيسى نظرا على المفاسد الموجودة ، فإن أكثرها من قوم مسيحيين » .

« ولا دين لنا إلا دين الإسلام ، ولا كتاب لنا إلا الفرقان ؛ كتاب الله العلام، ولانبى لنا إلا محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، اشهدوا أنا نتمسك بكتاب الله القرآن

ونتبع أقوال رسول الله منبع الحق والعرفان ، ونقبل ما انعقد عليه الإجماع بذلك الزمان ، لانزيد عليها ولا ننقص منها . وعليها نحيا ، وعليها نموت ، ومن زاد على هذه الشريعة مثقال ذرة ، أونقص منها ، أو كفر بعقيدة إجماعية فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

« هذا اعتقادى وهو مقصودى ومرادى ولا أخالف قومى فى الأصول الإجماعية . وما جئت بمحدثات كالفرق المبتدعة ، بيد أنى أُرْسِلْتُ لتجديد الدين ، وإصلاح الأمة على رأس هذه المائة فأذكرهم بعض مانسوا من العلوم الحكمية ، والواقعات الصحيحة الأصلية : وجعلنى ربى عيسى ابن مريم على طريق البروزات الروحانية » .

« وتعلمون أن فتن النصارى وغلوّهم فى الخزعبلات كانت تقتضى حكما من رب السموات،فالله الذى نجى المسيح من صليب اليهود ورفعه إلى المقام الأعلى ؛ أراد أن ينجيه من صليب النصارى مرة أخرى ، فأرسلنى حكما عدلا لهذه الخطة ، وسمانى باسمه لأكسر الصليب وأتم ما بقى منه من فرائض النصيحة ، ومن آيات الله أنه أخفى فى عدد اسمى عدد زمانى ، وإن شئت ففكر فى (غلام أحمد قاديانى) فذلك خاتم رب العالمين . وفيه إشارة إلى أنه جعلنى لهذه الملة مجدد الدين » .

« اعلموا أن فضل الله معى ، وأن روح الله ينطق فى نفسى ، فلا يعلم سرى ودخيلة أمرى إلا ربى ، هو الذى نزّل علىّ وجعلنى من المنوّرين » .

* * *

ادّعى غلام أحمد أنه المسيح الموعود ؛ بمعنى أنه جاء بقوة وروح عيسى عليه السلام وادعى أيضا أنه هو النبى الذى تنبأت بظهوره فى آخر الزمان أغلب الديانات العظيمة ، وأكد أن القرآن هو آخر كتاب تشريعى موحى به من الله تعالى ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء المشرعين، وأنه خاتم النبيين، أى أنه لايمكن لأى نبى غير مشرع أن يظهر بعده إلا باتباعه اتباعا كاملا ، والتشبه به تشبها تاما ، وقد ادعى أنه نبى ، وأن

مهمته هي إقامة العلاقة بين الإنسان وخالقه، كما أنه جاء أيضا ليفسر القرآن وتعاليم الإسلام، في ضوء الوحي الإلهي بما يطابق العصر الحاضر ، وليكون هو نفسه مثالا يبين الحياة الإسلامية الـكاملة .

وللقاديانية رئيس ديني يلقبونه بلقب أمير المؤمنين ، وخليفة المسيح الموعود ، والمهدى المعضود .

وقد صادفت الدعوة القاديانية نجاحا فى بعض جهات أفريقية ، وأخذوا يبشرون بالإسلام فى أوربا وأمريكا وآسيا ، وشيدوا بعض المساجد فى انجلترا، ولـكنهم لم يجدوا من يقبل دعوتهم فى البلاد العريقة فى الإسلام كشمال أفريقية ومصر ، والجزيرة العربية والسودان والعراق والشام ، وقد قل نشاطهم الآن وضعفت حماستهم .

الفصل الثاني

المجتمع الإسلامى وثورته على القديم

جاء القرن العشرون وقد وقعت معظم الشعوب الإسلامية فى قبضة الاستعمار الأوربى يحكمها حكما مباشرا، ويبتز خيراتها ويسخرها تسخير العبيد، فأخذ بعض مفـكرى المسلمين يبحثون عن أسباب تخلف أبناء دينهم وتأخرهم عن ركب الحضارة الغربية، فمنهم من عزا ذلك إلى جمود الأحكام الفقهية ، وعدم مسايرتها لطبيعة العصر الحديث ، وطفق الناس يتساءلون عن أوجه الحلال والحرام فيما بين أيديهم من أنواع الحضارة والعمران ، هل المساهمة فى الشركات ، وشراء السندات ، وإيداع الأموال في المصارف وصناديق التوفير نظير ربح سنوى مما يحلله الدين؟ وهل خروج المرأة سافرة واختلاطها بالرجال فى المدارس والمعاهد والمصالح الحـكومية وغير الحـكومية مما يبيحه الإسلام؟ هل تقابل الفتى مع الفتاة

وخروجها معه إلى الحدائق ودور اللهو قبل زواجهما مما يتفق مع الإسلام ؟ هل لبس القبعة حلال أم حرام ؟ هل التصوير والنحت وإقامة التماثيل وحلاقة اللحية وتشريح جثة الميت للكشف عن سبب وفاته، وعرض المرأة على الطبيب؛مما تجيزه الشريعة الإسلامية ؟ هل يجوز ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية ؟ وهل يجوز إذاعته من محطات الإذاعة ؟ هل يجوز حل الأوقاف الأهلية ؟ .

* * *

انقسم علماء المسلمين بإزاء هذه الموضوعات إلى قسمين :

١ — قسم متزمت يقول بالتحريم على طول الخط. وكان هذا الفريق إذا رأى بعض مظاهر الجدة أخذت طريقها بين المسلمين ربط بينها وبين ضعف الشعوب الإسلامية وخضوعها للمستعمرين ، وعزا هذا الضعف وتلك الاستكانة إلى عدم تمسك المسلمين بتعاليم دينهم ، وتقليدهم للفرنجة فى كل شيء . وتعاليم الدين التى كانوا يقصدونها هى حالة الجمود والنفور من كل جديد ولو كان نافعا،فأخذ الربح على الأموال المودعة فى المصارف وصناديق التوفير ، وعن الأسهم والسندات ، والسماح للمرأة بالخروج للتعلم أو العمل ؛ كل هذا عندهم من أسباب ضعف المسلمين ، ذلك الضعف الذى أدى بهم إلى الوقوع فى قبضة المستعمرين .

٢ — وقسم كان يرى أن الدين الإسلامى لايمنع معتنقيه من الأخذ بأسباب المدنية كلها ، ومجاراة الفرنجة في ميادين العمل المختلفة ، ومن رأيهم فتح باب الاجتهاد على مصراعيه وكان على رأس هذا الفريق الشيخ محمد عبده ، ويؤثر عنه أنه قال «أما ماجاء فى القرآن فعلى العين والرأس ، وأما ماجاء فى الحديث فعلى العين والرأس . وأما ما قاله الأئمة ، فهم رجال ونحن رجال» ومن ثم أخذ يوفق بين الشريعة الإسلامية ومقتضيات العصر الحديث .

ويقول تلميذه محمد رشيد رضا[١] : إن توسع الفقهاء فى مسائل الربا ، وإدخالهم فيها مالم يكن معروفا فى عصر الوحى ، وتضييق أكثرهم فى أحكام العقود المالية ، واستحداث الأمم التى يتعامل المسلمون معها لأنواع كثيرة من العقود والمعاملات ، وترقى العلوم الاقتصادية ، والأعمال المالية إلى درجة قضت بتفوق مُتَّبِعى قواعدها ونظمها على غيرهم فى الثروة والقوة والسيادة ، كل أولئك كان سببا فى تخلف المسلمين ، ورافعا لغيرهم عليهم حتى فى ديارهم ، بل هو أظهر العلل لسلب ملكهم منهم ، والسيطرة عليهم فيما بقي لهم من السيادة فيه . ولاعتقاد أكثر الذين يعرفون أحوال هذه الأمم العزيزة فى علومها وأعمالها ويجهلون أصول الإسلام ؛ أن الإسلام نفسه علة ضعف المسلمين بما شرعه من الجمود على أحكام عتيقة مالية واجتماعية توجب فقر ملتزميها ، وكل ما يجره الفقر فى الأمم من الذل والضعف وفقد الملك » .

« إذن لا يمكن خروج الأمة الإسلامية من جحر الضب الذى دخلت فيه إلا بالاجتهاد ، ووجود المجتهدين » .

وقال محمد أبو زيد[٢] من علماء الأزهر :

« كل يوم نسمع ضجة الناس وقولهم إن أحكام الدين لا تصلح لهذا الزمان ، يضربون لذلك مثلا أحكام المحاكم الشرعية ، وأنها أوجدت كثيرا من المشاكل ، ولم تؤد المقصود من الإصلاح فى الزوجية . وأن الزواج والطلاق أصبح الأمر فيهما فوضى» .

« وقد فات هؤلاء الصائحين أن الأحكام التى يرونها مخالفة لمصالحهم ليست من نصوص الدين ، وإنما هى آراء ومذاهب لبعض الذين سبقوا طبقوها على زمانهم بقدر ماوصل اجتهادهم إليه من الفهم والاستنتاج » .

« فمن هذه الأحكام ماهو غير صالح الآن ، لأن أصحابه لم يروه لعصرنا ، وإنما رأوه لذلك الزمان » .

---

(١) الخلافة ط المنار ص ٦٥ . (٢) الزواج والطلاق المدنى فى القرآن ص ١ ، ٣ .

«ومنها ماهو غير صالح من قبل، لأن أصحابه فهموه واستنتجوه من أحاديث لم تصح وظنوها صحيحة . أو لأنهم أخطأوا فى فهم المراد من الآيات ، أو فى التطبيق على الحوادث. فالخطأ فى الأحكام سببه بطلان الدليل ، أو بطلان الفهم أو التطبيق » .

« وإنك لتجد كثيرا من الأحاديث التى تروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فيها أحكام كانت خاصة بزمنها ومكانها ، فلما نقلت فهم بعض الناس فى مختلف العصور أنها يعمل بها ، ولم يفهموا أنها مؤقتة ، وأنها من سنة الرسول فى التطبيق الذى قد تنسخه الحوادث ، ويتغير بتغير الظروف والأحوال ، وليست من الأمور التعبدية الدائمة التى أمر الله الناس أن يتقيدوا بها فى كل زمان » .

« ولقد[1] كان تقليد الناس بعضهم بعضاً سببا كبيراً فى الضلال والحيرة . فقد يفهم أحد الفقهاء فهما ، ويكون خطأ ، فيقلده الناس ، ويصير هذا الفهم دينا تمشى عليه التقاليد وتؤلف فيه الكتب . وإنك لتجد كثيرا من المسائل التى اشتهرت وأجمع الناس عليها بالتقليد لا أصل لها فى الدين إلا رواية ملفقة ، أو حديثا مكذوبا . وكثيرا ما اندست روايات وأحاديث فى تفسير القرآن ، وتحكمت فيه بحسن نية المفسرين حتى صارت قاعدة يطبقون القرآن عليها . فما وافقها منه أخذوه ، وما عارضها أوّلوه أو نسخوه » .

فالمسلمون فى هذا العصر قد انقسموا إلى فرقتين :

١ — فرقة ترى أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان . وكان ينتمى إلى هذه الفرقة كثيرون من المثقفين وبخاصة رجال القانون . قال على أبو الفتوح ، وكان من كبار رجال القانون فى عصره ، فى مقدمة كتابه : « الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية » :

« يظن كثير من الناس حتى من المسلمين أنفسهم أن المبادئ المقررة فى الشريعة الغراء لا توافق هذا الزمان الذى بلغ فيه الإنسان من التمدن والترقى درجة رفيعة ، ويتوهمون

(١) الزواج والطلاق المدنى فى القرآن ص ٢٨ .

أن الأحكام والروابط الموجودة فى القوانين الحديثة الوضعية لا مقابل لها فى الأصول الإسلامية ، وإنما هى بمثابة الاختراعات المادية الجديدة التى أنتجها فكر علماء الغرب ، لم يسبقهم إليها أحد ، ولكن الباحث فى الفقه الإسلامى ولو قليلا لا يلبث أن يغير هذا الظن ويتحقق أن أسلافنا وصلوا فى الرفاهية وتقرير المبادئ العمرانية والاجتماعية والقضائية شأوا قلما يجاريهم فيه أحد »

٢ – وفرقة كانت ترى أن الأحكام الفقهية كما وصلت إلينا لا تصلح فى كثير منها لهذا العصر ؛ وكان على رأس هذه الفرقة محمد عبده ، ورشيد رضا ، ومحمد أبو زيد وغيرهم ممن نادوا بفتح باب الاجتهاد ، وقالوا بعدم الاقتصار على المذاهب الأربعة المعتمدة عند أهل السنة ، وعدم التقيد بالإجماع الذى لم يتحقق ثبوته فى أى عصر من العصور . قال عبد المتعال الصعيدى[1] : « ولهذا أرى الاستغناء عنه بالكتاب والسنة ، وهذا يحل لنا مشكلة كبيرة فيما نقصد من الجمع بين جميع الفرق عند فتح باب الاجتهاد ، لنحصل على فقه يتعاون فيه اجتهادهم جميعا ، ولا تنفرد به فرقة دون غيرها من فرق المسلمين ؛ لأنا إذا أبقينا الاحتجاج بالإجماع رأينا أنفسنا أمام إجماع لأهل السنة ، وإجماع للشيعة ، وإجماع لغيرهم من الفرق المختلفة . ولا شك أن ذلك الإجماع المتعدد لا يمكن أن يتفق دائما . وهنا يصعب علينا أن نرجح إجماعا على إجماع » .

* * *

وقد كانت حركة تحرير المرأة التى قام بها قاسم أمين (١٨٦٥ – ١٩٠٨) أول حركة تثير جدالا ونقاشا شديدا بين المسلمين الذين انقسموا بصدد هذا الموضوع إلى فريقين :

١ – الفريق الأول : أنصار الحجاب ، وهؤلاء كانوا يرون فى دعوة قاسم أمين كفرا صريحا ، وخروجا على أحكام الدين الحنيف ، وعاملا على نشر الفوضى الخلقية .

(١) « فى ميدان الاجتهاد » ص ٢٤ .

٢ — والفريق الثانى كان يرى أن الدين الإسلامى لم يفرض الحجاب على النساء ، وأوّلوا الآيات القرآنية التى نزلت فى الحجاب على أنها خاصة بنساء النبى عليه الصلاة والسلام . قال قاسم أمين فى قوله تعالى (يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ[1]) .

« ولا يوجد اختلاف فى جميع كتب الفقه من أى مذهب كانت ، ولا فى كتب التفاسير فى أن هذه النصوص الشريفة هى خاصة بنساء النبى صلى الله عليه وسلم . أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب ، وبين لنا سبب هذا الحكم ؛ وهو أنهن لسن كأحد من النساء » .

« ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وكانت أسباب التنزيل خاصة بهن ؛ لاتنطبق على غيرهن . فهذا الحجاب ليس بفرض ولا واجب على أحد من نساء المسلمين » .

« إنا نطلب تخفيف الحجاب ورده إلى أحكام الشريعة الإسلامية ، لا لأننا نميل إلى تقليد الأمم الغربية فى جميع أطوارها وعوائدها لمجرد التقليد ، أو للتعلق بالجديد لأنه جديد ، وإنما نطلب ذلك لأننا نعتقد أن لرد الحجاب إلى أصله الشرعى مدخلا عظيما فى حياتها المعاشية » .

« ولسنا فى مقام استحسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق أو منافرته . وإنما نحن بصدد مابه قوام حياة المرأة ، أو مابه قوام حياتنا » .

وقد استمرت هذه المعركة أكثر من ربع قرن . وألفت فيها الكتب الكثيرة ، وحررت المقالات الطويلة ، ونظمت القصائد الرائعة .

---

(١) الأحزاب آية ٣٢ .

وقد اعتنق المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها آراء قاسم أمين فى تحرير المرأة ، بل زادوا على ما نادى به كثيرا فمنحوها حق المشاركة فى الحياة السياسية فأصبحت عضوا فى المجالس النيابية . إلا أن المسلمين ما زالوا مختلفين فى أمر اختلاط الجنسين . فهناك من يمنع هذا الاختلاط منعا باتا ، وهناك من يحدده ، وهناك من ينادى به وينتصر له . ومن أمثلة المناقشات التى دارت بهذا الصدد ما كتبه إسماعيل مظهر فى مجلته «العصور» عدد سبتمبر سنة ١٩٢٨ ناقدا كتاب « المرأة فى الإسلام » .

« . . . ويسائلك ـ أى مؤلف الكتاب ـ إذا كنت تخلو بامرأة ، وبالطبع يقصد الجميلة ؛ لا البشعة المنظر ؛ فى حديقة يحوط بكما الورد والنرجس ، ماذا تحدثك به نفسك مهما كنت تقيا ورعا » .

« ويظهر أن حضرته قد أغفل عمدا ذكر صفة الجمال ، لأنه يعلم تمام العلم بأنه ليس من لزوميات النساء وحدهن ، بل يوجد فى الذكور من يتصف بهذه الصفة . فهل يسمح لى أن أسائله : ما الذى تحدثك به نفسك مهما كنت ورعا تقيا إذا وجدت فى ذلك المكان مع صديق جميل المنظر؟ بالطبع سيقيم الدنيا على ويقعدها ، ويصفنى بأحط الأوصاف. ولكن هذا هو الواقع ياصديقى إذا أردتنى أن أنسج على منوالك ، وأتناسى وجود شىء اسمه الشرف والترفع ، فإذا لم يوجدا ؛ فلم لم تحصر الحجاب فى الجميل من الجنسين ؟ وهل تنكر ياسيدى أن عادة قوم لوط أكثر انتشارا فى بلاد الحجاب من أى مكان آخر؟» .

وقال عمر عنايت فى ١٤٩ من العدد المذكور :

« الاختلاط ضرورى للجنسين . فإذا تشبثتم بفكرة الفتنة وبفكرة ضعف المرأة ؛ فهلا حاولتم حجب وجه الرجل دونها ، لأنها أكثر منه تعرضا للفتنة ؟ بل هلا حاولتم بالأقل الحجر على من هو جميل من الرجال ؟ لأن الجمال هو الداعى الأكبر للافتتان ، وليس مجرد الأنوثة ، أريد أن أسر إليكم يا أنصار الحجاب الأتقياء بما هو معلوم لديكم وهو : أينما وجد التحجب انتشر اللواط » .

هذه أمثلة مما كتبه أنصار الاختلاط بين الجنسين تأييدا لرأيهم. ويمكننا أن نقول: إن اجتماع الرجل بالمرأة يأتى بثمرة ، فلمن تنسب هـذه الثمرة ؟ ونحن ما زلنا نتمسك بالزواج من البنت البكر ، وما زلنا نتحرى عن سمعة الفتاة قبل أن نتزوج بها ، فى حين أن أهل الفتاة لا يتحرون عن سمعة الشباب من الناحية الجنسية . ثم إن اللواط موجود بكثرة فى أوربا وأمريكا ، فبم نعلل ذلك ؟ وهذه البلاد لا تعرف الحجاب . انظر إلى ما نشرته صحيفة الجمهورية فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧ تحت عنوان « الشذوذ الجنسى عمل مشروع يوافق عليه مجلس الكنائس الإنجليزية » وهو : « وافق مجلس الكنائس الإنجليزية بعـد مناقشات حامية على التوصية التى كانت تقدمت بها إحدى اللجان الحكومية باعتبار الشذوذ الجنسى الذى يحدث بين البالغين وبرضاهم عملا مشروعا لا يعاقب عليه القانون . وكان كبير أساقفة كانتبرى «جوفر فيشر» هو الذى قاد الحملة لتأييد هذه التوصية التى تمت الموافقة عليها فى مجلس الكنائس بأغلبية ١٥٥ صوتا ضد ١٣٨ » .

* * *

وعلى كل حال فإن المسلمين اضطرتهم ظروف الحياة ، وبخاصة فى المدن الكبرى ؛ إلى التساهل فيما يتعلق بالزنا . وذلك لأن الشاب المسلم يظل يتلقى العلم حتى يجاوز العشرين أو الخامسة والعشرين . وإذا وجد عملا فإن دخله لا يمكنه من الزواج إلا بعد أن يتجاوز الثلاثين . وعوامل الإغراء أمامه كثيرة ، فى الشارع ، وفى السيارات العامة ، وفى دور اللهو ، وفى القصص والروايات والصور ، وفى المعاهد والجامعات .

وأصبحت الفتاة المسلمة لا تجد غضاضة فى أن تظهر مفاتنها وتكشف عن صدرها وظهرها ، وتدهن بالمساحيق خديها وشفتيها . وتظهر على الشواطئ بملابس البحر . فالواقع أن الوازع الدينى من هذه الناحية إن لم يكن انعدم تماما ، فهو فى طريق الانعدام .

* * *

واختلف المسلمون : هل يقيدون الزواج بواحدة ؟ أم يتركون الناس على ما أباحه لهم الدين ؟

وقد ظهر الرأى القائل بالتقييد فيما كتبه قاسم أمين ومن جاء على أثره من المفكرين . وكان من المسلمين من يرى فى هذه الدعوة كفرا . وقد كتبت صحيفة « المؤيد » فى ١٤ مارس سنة ١٩١٤ تحت عنوان « رد نزعة إلحادية » مقالا جاء فيه :

« نشر الدكتور عبده البرقوقى مقالة فى تعدد الزوجات افترى فيها على الدين ما شاء » .

« لقد صدق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « تَفْتَرِقُ أُمَّتِى عَلَى بِضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، أَعْظَمُهَا عَلَى أُمَّتِى قَوْمٌ يَقِيسُونَ الْأُمُورَ بِرَأْيِهِمْ ، فَيُحِلُّونَ الْحَرَامَ ، وَيُحَرِّمُونَ الْحَلَالَ » .

« فإن هذه الفرقة ظهرت على الناس فى أوائل هذا القرن ، ولكن لم يظهر تأثيرها إلا قريبا . وقد أفسدت على الناس دينهم بآرائها الفائلة ، وأباطيلها الغرارة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . بل هذه حملة مدبرة ضد الإسلام والمسلمين أقامها هؤلاء الفلاسفة ليقوضوا أركان هذا الدين الكريم » .

إلا أننا نرى أحد علماء الأزهر ، وهو الشيخ محمد أبو زيد يقول : « إن الزواج[1] بواحدة هو الأصل فى الفطرة ، لأن فيه تبادل الحب بين الزوجين ، وحصر أفكارهما فى إصلاح أولادهما ، وتعاونهما على المشاركة فى الحياة » .

« وأما تعدد الزوجات فمفرق للحب ، وموجد للنزاع بين الزوجات والأولاد ، ومقلق لبال الرجل ، وباعث على إفساد نظام الأسرة . وأن الله الذى يشرع الأحكام لتنظيم الفطرة يعلم أن المرأة لا تقل عن الرجل غيرة على الزوج وحبا فى الانفراد به » .

وقد انتصر الرأى القائل بعدم التقييد ، وخاصة بعد أن انضح إخفاق التجربة التى

---

(١) الزواج والطلاق المدنى فى القرآن ص ٢٠١ .

حدثت فى تركيا، إذ انضح للحكومة التركية أن تقييد الزواج بواحدة، أدى إلى انتشار زيجات سرية، كما أدى إلى اختلاط غير شرعى بين الجنسين .

* * *

واختلفوا كذلك فى جواز ترجمة القرآن . فقال بعضهم إن القرآن متى ترجم تكون ترجمته تبديلا لكلمات الله، وقد نهى الله عن ذلك . قال الشيخ حسنين مخلوف[1] :

« . . . ومن أسوإ هذه الأعمال، وأكثرها شرًّا، وأعظمها ضررًا ، وأشدها اجتراء على كتاب الله ترجمته ترجمة حرفية، فإنها ضرب من التحريف والتغيير والتبديل فيما تولى الله ورسوله حفظه، وأمرنا بالمحافظة عليه » .

وهو يرى أن ترجمة التفسير جائزة بشرط أن يكون التفسير صحيحا . إلا أن الأتراك قاموا بترجمته، وهم يتلونه بلغتهم .

أما تسجيل القرآن على اسطوانات الحاكى، فقد تعرض لها الشيخ مخلوف فقال :

« وأى استهانة بكلام الله القديم، واستخفاف بشأنه أبشع من نقل ألفاظه الشريفة، وآياته المقدسة بآلات لا تدار إلا للطرب بالأناشيد الغرامية ، والمداعبات الفكاهية واللهو بالهجر من القول ؟ ! » .

ولما أقيمت دار الإذاعة كرر بعضهم هذه الأقوال، وزاد عليها أن المذياع يوضع فى المقاهى ، وفى الخمارات ، وبيوت الدعارة وفى هذه الأحوال يتعرض كلام الله لضروب من الاستهزاء والسخرية .

* * *

وفيما يتعلق بالنحت والتصوير وإقامة التماثيل فقد أجازها المسلمون وبخاصة فى هذه الأيام ، وقالوا إن الأغراض التى دعت إلى تحريمها قد انتفت ، ولا خوف منها على العقيدة .

* * *

(١) رسالة فى حكم ترجمة القرآن ط. مصر سنة ١٩٢٥ .

الإمامة :

من المعروف أن المسلمين أجمعين قد اتفقوا فيما مضى على أن الإمامة واجبة شرعا ، وأن أمور الدين لا تستقيم إلا بوجود الإمام ، ولم يشذ عن هذا إلا الخوارج .

وفى سنة ١٩٢٤ م ألغت حكومة مصطفى كمال الخلافة العثمانية ؛ وقد أصدر المجلس الوطنى التركى رسالة شرح فيها وجهة نظره فى إلغاء الخلافة . إلا أن الرأى العام فى العالم الإسلامى لم يقابل هذا العمل بالارتياح . وأخذ بعض مفكرى المسلمين يتبادلون الآراء لإقامة خلافة إسلامية .

أما الرسالة التى أصدرها المجلس الوطنى التركى بعنوان : « الإسلام وسلطة الأمة » فقد ترجمت إلى اللغة العربية وطبعت بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٢٤ .

وفى سنة ١٩٢٥ أصدر على عبد الرازق ، وكان قاضيا بمحكمة المنصورة الشرعية الابتدائية كتابه « الإسلام ونظام الحكم » وبين الاسمين تشابه كما ترى .

وقد جاء فى كتاب « الإسلام وسلطة الأمة » ص ٥ ما نصه :

« إن هذه المسألة ــ الخلافة ــ دنيوية وسياسية أكثر من كونها مسألة دينية ، وإنها من مصلحة الأمة نفسها مباشرة ، ولم يرد بيان صريح فى القرآن الكريم ولا فى الأحاديث النبوية فى كيفية نصب الخليفة وتعيينه ، وشروط الخلافة ماهى ... »

وقال على عبد الرازق فى ص ١٦ ما نصه : « إنه لعجب عجيب أن تاخذ بيديك كتاب الله الكريم ، وتراجع النظر فيما بين فاتحته وسورة الناس ، فترى فيه تصريف كل مثل ، وتفصيل كل شىء من أمر هذا الدين (مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ) ثم لا تجد فيه ذكرا لتلك الإمامة العامة ، أو الخلافة . إن فى ذلك لمجالا للمقال ! ليس القرآن وحده الذى أهمل تلك الخلافة ، ولم يتصد لها ، بل السنة كالقرآن أيضا ، قد تركتها ولم تتعرض لها » .

وفى رسالة المجلس الوطنى التركى ص ٤ ما نصه : « إن الفرقة المسماة بالخارجية تنكر

وجوب الخلافة ، وتقول إن أمر نصب الخليفة وتعيينه ، ليس واجبا على الأمة الإسلامية، بل هو جائز، ووجوده وعدم وجوده سيان » .

ويقول على عبد الرازق فى ص ٣٣ مانصه : « . . . فكيف وقد قالت الخوارج لايجب نصب الإمام أصلا ، وكذلك قال الأصم من المعتزلة ، وقال غيرهم أيضا كما سبقت الإشارة إليه . وحسبنا فى هذا المقام نقضا لدعوى الإجماع أن يثبت عندنا خلاف الأصم والخوارج وغيرهم ، وإن قال ابن خلدون إنهم شواذ » .

وهكذا ردد على عبد الرازق فى كتابه ماجاء فى رسالة المجلس الوطنى التركى ، وزاد عليها شيئا من فساد الفهم ، وسوء الأدب فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وحق كبار الصحابة .

وقد قابلت الدوائر الاستعمارية والمراكز التبشيرية المسيحية كتاب على عبد الرازق بالترحيب والتصفيق ، وذلك لخشيتها من كل فكرة ترمى إلى تكتل العالم الإسلامى ، وارتياحها إلى نشر مثل هذه الآراء الخبيثة التى ضمنها على عبد الرازق كتابه ، تلك الآراء التى تخدم أهداف الاستعمار وتحقق آماله فى السيطرة على الشعوب الإسلامية ، وإذلالها إلى الأبد . وقد كشف المؤلف عن نفسه الخبيثة فى حديثه مع مراسل صحيفة « البورص إجبسيان » ، حينما سأله هذا المراسل :

— هل يمكن أن نعتبرك زعيما لمدرسة ؟

فأجاب : لست أعرف ماذا تعنى بزعيم مدرسة . فإن كنت تريد بهذا أن لى أنصارا ؛ يسرنى أن أصرح لك أن الكثيرين يرون رأيى ، لافى مصر وحدها ، بل فى العالم الإسلامى بأسره . وقد وصلتنى رسائل التأييد من جميع أقطار العالم التى نفذ إليها الإسلام . ولاريب أنى رغم الحكم ، لا أزال مستمرا فى آرائى وفى نشرها ، لأن الحكم لايعدل طريقة تفكيرى » .

« وسأسعى إلى ذلك بكل الوسائل الممكنة كتأليف كتب جديدة ، ومقالات فى الصحف ، ومحاضرات وأحاديث» .

والآراء التى أراد على عبد الرازق أن ينشرها بين المسلمين ، ويؤلف فيها الكتب تتلخص فى الطعن فى حكومة النبى صلى الله عليه وسلم ، واتهام كبار الصحابة بأشنع التهم . ولم يكن من بين هذه الآراء الحض علي مكافحة الاستعمار ، والجهاد فى سبيل الاستقلال والحرية ، ولا عجب فى ذلك ، فبيت عبد الرازق كان فى ذلك الوقت من البيوت العريقة فى خدمة الاستعمار ، فقد أنشأ حسن عبد الرازق حزب الأمة سنة ١٩٠٨ لمحاربة الحركة الوطنية . وبعد سنة ١٩١٩ م انضم آل عبد الرازق إلى حزب الأحرار الدستوريين الذى كان يعمل مع الإنجليز .

• • •

وقد انعقدت هيئة كبار العلماء برياسة المرحوم محمد أبى الفضل الجيزاوى ، شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الوقت ، صباح الأربعاء ٢٢ المحرم سنة ١٣٤٤ هـ (١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥) وكان عدد أعضائها أربعة وعشرين عالما . ولما مثل على عبد الرازق أمام الهيئة حياها بقوله « السلام عليكم » فلم يرد عليه أحد . وبعد مناقشة طويلة ، أصدرت الهيئة حكمها بإدانة المتهم ، وإخراجه من زمرة العلماء .

ويترتب على الحكم المذكور : محو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى ، وطرده من كل وظيفة ، وقطع مرتباته فى أى جهه كانت وعدم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية ، دينية كانت أو غير دينية .

أما حيثيات الحكم ، فنوجزها فيما يلى :

١ — أن الشيخ عليا جعل الشريعة الإسلامية ، شريعة روحية محضة ، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا .

وقد ردت الهيئة على هذا الزعم الباطل بأن الدين الإسلامى هو إجماع المسلمين على ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، من عقائد ، وعبادات ، ومعاملات لإصلاح أمور الدنيا

والآخرة ، وأن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كلاهما مشتمل على أحكام كثيرة فى أمور الدنيا ، وأحكام كثيرة فى أمور الآخرة .

وقالت الهيئة : وواضح من كلامه ـ المؤلف ـ أن الشريعة الإسلامية عنده شريعة روحية محضة ، جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط ، وأن مابين الناس من المعاملات الدنيوية وتدبير الشئون العامة فلا شأن للشريعة به ، وليس من مقاصدها .

وهل فى استطاعة الشيخ أن يشطر الدين الإسلامى شطرين، ويلغى منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا، ويضرب بآيات الكتاب العزيز، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض الحائط ؟ !

• • •

٢ — ومن حيث إنه زعم أن الدين لايمنع من أن جهاد النبى صلى الله عليه وسلم كان في سبيل الملك ، لا فى سبيل الدين ، ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين .

فقد قال « . . . وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة إلى الدين ، ولا لحمل الناس على الإيمان بالله ورسوله » .

ثم قال : « . . . وإذا كان صلى الله عليه وسلم قد لجأ إلى القوة والرهبة ، فذلك لا يكون فى سبيل الدعوة إلى الدين وإبلاغ رسالته إلى العالمين ، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان فى سبيل الملك » .

على أنه لايقف عند هذا الحد ، بل كما جوز أن يكون الجهاد فى سبيل الملك ، ومن الشئون الملكية ، جوز أن تكون الزكاة والجزية والغنائم ، ونحو ذلك فى سبيل الملك أيضاً . وجعل كل ذلك على هذا ، خارجا عن حدود رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، لم ينزل به وحى ، ولم يأمر به الله تعالى .

والشيخ على لايمنع أن يصادم صريح آيات الكتاب العزيز ، فضلا عن صريح الأحاديث المعروفة ، ولا يمنع أن ينكر معلوما من الدين بالضرورة .

وذكرت الهيئة الآيات الواردة فى الجهاد فى سبيل الله ، والآيات الخاصة بالزكاة ، وتنظيم الصدقات ، وتقسيم الغنائم ، وهى كثيرة .

* * *

٣ — ومن حيث إنه زعم أن نظام الحكم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان موضع غموض ، أو إبهام ، أو اضطراب ، أو نقص ، وموجبا للحيرة .

وقد رضى لنفسه بعد ذلك مذهبا ، هو قوله : « إنما كانت ولاية محمد صلى الله عليه وسلم على المؤمنين ولاية رسالة غير مشوبة بشىء من الحكم » . وهذه هى الطريقة الخطيرة التى خرج إليها ، وهى أنه جرد النبى صلى الله عليه وسلم من الحكم .

وما زعمه الشيخ على مصادم لصريح القرآن الكريم . فقد قال الله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ) ثم أوردت الهيئة آيات كثيرة تتضمن معنى الآية السابقة ، وتنحو نحوها .

* * *

٤ — ومن حيث إنه زعم أن مهمة النبى صلى الله عليه وسلم، كانت بلاغا للشريعة مجردا عن الحكم والتنفيذ ، ولو صح هذا لكان رفضاً لجميع آيات الأحكام الكثيرة الواردة فى القرآن الكريم . ومخالفا أيضا لصريح السنة ، ثم أوردت الهيئة كثيراً من الأحاديث التى تهدم مزاعم المؤلف ، وختمت ذلك بقولها : « فهل يجوز أن يقال بعد ذلك فى محمد صلى الله عليه وسلم ، إن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان وإنه لم يكلف أن يأخذ الناس بما جاءهم به، ولا أن يحملهم عليه؟ ».

* * *

٥ — ومن حيث إنه أنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام ، وعلى أنه لابد للأمة ممن يقوم بأمرها فى الدين والدنيا . وقال إنه يقف فى ذلك فى صف جماعة غير قليلة من أهل القبلة، يعنى بعض الخوارج والأصم؛وهو دفاع لايبرئه من أنه خرج على

الإجماع المتواتر عند المسلمين . وحسبه فى بدعته أنه في صف الخوارج ، لا فى صف جماهير المسلمين .

* * *

٦ — ومن حيث إنه أنكر أن القضاء وظيفة شرعية، وقال إن الذين ذهبوا إلى أن القضاء وظيفة شرعية،جعلوه متفرعا عن الخلافة ، فمن أنكر الخلافة أنكر القضاء .

وكلامه غير صحيح ، فالقضاء ثابت بالدين على كل تقدير، تمسكا بالأدلة الشرعية التى لا يستطاع نقضها .

* * *

٧ — ومن حيث إنه زعم أن حكومة أبى بكر ، والخلفاء الراشدين من بعده ، رضى الله عنهم ، كانت لادينية ، وهذه جرأة لادينية ، ودفاع الشيخ على بأن الذى يقصده من أن زعامة أبى بكر لادينية ، أنها لاتستند إلى وحى ، ولا إلى رسالة، مضحك موقع فى الأسف ، فإن أحداً لا يتوهم أن أبا بكر رضى الله عنه ، كان نبيا يوحى إليه ، حتى يعنى الشيخ على بدفع هذا التوهم .

لقد بايع أبا بكر رضى الله عنه ، جماهير الصحابة من أنصار ومهاجرين ، على أنه القائم بأمر الدين فى هذه الأمة بعد نبيها محمد صلى الله عليه وسلم .

وإن ماوصم به الشيخ على أبا بكر رضى الله عنه ، من أن حكومته لادينية ، لم يقدم على مثله أحد من المسلمين ! فالله حسبه ، ولكن الذى يطعن فى مقام النبوة ، يسهل عليه كثيرا أن يطعن فى مقام أبى بكر وإخوانه الخلفاء الراشدين ، رضى الله عنهم أجمعين .

هذه خلاصة الحيثيات التى بنت عليها هيئة كبار العلماء حكمها السالف الذكر ، ولما كان الحكم قد صدر فى شهر أغسطس، أي فى وقت الصيف حيث كانت دار المندوب السامى خالية من كبار رجالها؛ لم يستطع هؤلاء أن يعملوا شيئا لإنقاذ الشيخ على وبخاصة

بعدصدور حكم هيئة كبار العلماء ، وثورة الرأى العام ضد المؤلف فتخلوا عنه كماهى عادتهم فى مثل هذه الظروف، وبذلك فصل من وظيفته،وقد كشفت صحيفة «ليفربول بوست» البريطانية عن هذه القبائح والمنكرات التى دبرها الاستعمار البريطانى ، واتخذ على عبد الرازق وسيلة لتنفيذها ، تعاونه طغمة من حزب الأحرار الدستوريين . نشرت الصحيفة المذكورة فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٢٥ مقالا جاء فيه : « . . . ولما عجز الأزهر عن حمل الحكومة على محاكمة الشيخ على عبد الرازق ؛ أصدر قرارا بفصله من زمرة العلماء ، ولكن الرأى العام المصرى لايؤيد تحفز الأرثوذكسية الإسلامية للشجار ، وقد بذلت مساع جدية لإحباط خططها ، وسنرى إذا كانت هذه الأرثوذكسية ستنجح فى فصل رجال الدين العصريين عن غيرهم وربما هزت حادثة مصطفى كمال أدمغة المصريين وأحدثت لغطا بينهم » .

• • •

وبعد اثنين وعشرين عاما؛غيرت هيئة كبار العلماء رأيها فى الشيخ على عبد الرازق؛ فبعد أن كان سنة ١٩٢٥ كافرا خارجا على الإسلام ، منكرا لكثير مما ورد فى القرآن والسنة ، إذا هو فى سنة ١٩٤٧ مؤمن يستحق العطف ويستوجب العفو انظر إلى ما نشرته صحيفة الأهرام فى ٢٦ – ٢ – ١٩٤٧ تحت عنوان « العلماء يلوذون بالعرش فى مسألة على عبد الرازق بك » وهو :

« عندما أصابت الأزهر تلك الصدمة التى نزلت فجأة فى شيخه الأكبر المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق؛اتجهت نية كبار العلماء إلى تكريم ذكراه في شخص شقيقه الأستاذ على عبد الرازق بك ، وذلك بأن يلوذوا بالسدة الملكية ملتمسين عفوا ملكيا عن أثر القرار الذى اتخذته هيئة كبار العلماء من قبل ، فما اختمرت هذه الفكرة حتى أخذت سبيلها إلى التنفيذ ، وأعدت صيغة الالتماس الذى يرفع فى هذا الشأن ، وحمله إلى القصر العامر جماعة كبار العلماء وأعضاء المجلس الأعلى للأزهر » .

« ومما هو جدير بالذكر؛ أنه روعى فى رفع هذا الالتماس أن تتقدم به الهيئتان العلمية والتنفيذية فى الأزهر . تمثل الأولى : جماعة كبار العلماء ، وتمثل الثانية : المجلس الأعلى للأزهر ، وأن يكون الملاذ فى ذلك ؛ هو جلالة صاحب العرش ، بعد أن تبين أن جماعة كبار العلماء لاتملك بوضعها الحالى أن تتخذ قرارا جديدا بإلغاء قرارها الأول فى مسألة الأستاذ على عبد الرازق بك؛ إذ أن مثل هذا القرار يجب أن يصدر بأغلبية ثانى أعضائها ، على أن يكون من بينهم شيخ الأزهر . وذلك يقضى قرارا من عشرين عضوا ، على حين أن الأحياء من أعضاء الجماعة لايبلغون هذا العدد » .

هذا مانشرته الصحف فى ٢٦ ـ ٢ ـ ١٩٤٧ ، ومنه نرى أن علماء الأزهر ، بما فيهم هيئة كبار العلماء كانوا مدفوعين من تلقاء أنفسهم إلى طلب العفو عن على عبد الرازق، وأن هيئة كبار العلماء لم يتوفر فيها العدد القانونى الذى يمكنها من إلغاء قرارها الصادر فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥ ، فلذلك لجأت إلى الملك . والحق أن هذا كله محض كذب وافتراء ، فقد أراد الملك فاروق أن يعين على عبد الرازق وزيرا للأوقاف ، فأمر شيوخ الأزهر بأن يقوموا بهذه الحركة ، فأطاعوا وتبرعوا بالكذب .

وفى يوم ٣ مارس سنة ١٩٤٧ نشرت الصحف مرسوما بتعيين على عبد الرازق وزيرا للأوقاف .

والعجب أن يكون تكريم ذكري مصطفى عبد الرازق عَلَى حساب الدين ؛ هذا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى القرار الصادر سنة ١٩٢٥ . وإلى الضجة الهائلة التى أحدثها علماء الأزهر حول الكتاب ومؤلفه .

• • •

وعلى كل حال فإن المؤتمرات التى عقدت للنظر فى إقامة خلافة إسلامية قد باءت بالفشل ، وذلك بفضل دسائس الاستعمار. والمسلمون من أهل السنة قد انصرفوا عن النظر فى هذا الموضوع نهائيا . فيبدو أنهم اعتنقوا مذهب الخوارج فى الإمامة .

الفصل الثالث

بين الكفر والإيمان

تناول بعض الباحثين المسلمين القرآن الكريم والسيرة النبوية تناولا أدى بهم إلى الكفر الصريح على أن منهم من رجع عن آرائه وتبرأ منها وعاد إلى حظيرة الإسلام، والله أعلم بالسرائر .

وممن نحا هذا النحو :

١ — منصور فهمى (١٨٨٦ ـ ١٩٥٩)

سافر منصور فهمى إلى فرنسا سنة ١٩٠٨ فى بعثة على نفقة الجامعة المصرية ، فوضع رسالة للحصول على درجة دكتوراه الدولة ، موضوعها « حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية وتطوراتها » .

La Condition de **la** femme dans **la** tradition et l'evolution de **l'islamisme** .

وقد جاء فى ص ١٥ ما ترجمته :

« محمد يشرع لجميع الناس ويستثنى نفسه » « ومع أنه ـ يعنى محمدا ـ كان المشرع الذى ينبغى أن يخضع لما يدعو إلى تطبيقه على الآخرين ، إلا أنه كان له ضعفه ، واختص نفسه ببعض المزايا » .

وقال فى الصفحة المتقدمة ما ترجمته :

« . . . وفى الساعة التى كان يعود فيها إلى شعوره كإنسان ، كان ينبغى عليه أن يدرك أن من الصعب عليه أن يخضع للقوانين التى جاهر بها باسم الرب . ومع ذلك فإنه

عزم باعتباره رسولا ، أن يلزم بقوانينه الأمة التي يريد أن ينشئها، إلا أنه سرعان ماوجد حلا لتلك المشكلة ، فاختص من حمل برسالة إلهية بميزات لايحظى بها العاديون من الفانين » .

وقال فى ص ١٦ ما ترجمته :

« وهكذا نجد أنه ـ يعنى محمدا ـ بعد أن ينام نوما عميقا، يقوم ليؤدى صلواته دون أن يجدد طهوره ووضوءه ، على حين أن المؤمنين الآخرين، كان عليهم الشروع فى وضوء وطهور جديد . ومن أجل أن يبرر الاستثناء الذى عمل لصالحه ؛ اكتفى بأن قال : إن عينى تنام ، ولا ينام قلبى أبدا » .

وقال فى ص ١٨ ماترجمته :

« ولقد حد النبى من نظام تعدد الزوجات ، إلا أنه تعدى بالنسبة إلى نفسه ماوضعه من حدود للآخرين . فمع أن بقية المؤمنين لم يكن فى مقدورهم أن يتزوجوا بأكثر من أربع نساء ، فإن محمدا أجاز لنفسه أن يتزوج بأكثر من ذلك . هذا كما أنه استلزم لشرعية الزواج : دفع مهر ، ووجود شهود ، إلا أنه فى زواجه أعفى نفسه من المهر والشهود » .

وهكذا مضى منصور فهمى فى كتابه على هذه الوتيرة. ونشره فى باريس سنة ١٩٠٣ .

* * *

وقد كتب المرحوم « محمد لطفى جمعة » مقالا طويلا نشرته صحيفة « المؤيد » فى ٢٨ يناير سنة ١٩١٤ وفيه رد قوى على مزاعم منصور فهمى الذى اعتمد على الأحاديث الموضوعة والضعيفة ، ومع ذلك فلم يشأ أن يفهمها على وجه صحيح ، بل فهمها على وجه خطإ ، لأغراض قبيحة انطوت عليها نفسه الخبيثة .

وبين المرحوم محمد لطفى جمعة الحكمة فى زواج النبى صلى الله عليه وسلم بأكثر من أربع ، والظروف التى أحاطت بكل زواج ، وما ترتب على ذلك من فوائد سياسية

واجتماعية عززت مكانة الإسلام ، ووطدت أركانه فى شبه الجزيرة . وذكر أن حياة النبى عليه الصلاة والسلام ، من يوم مولده إلى أن بعث وهو فى الأربعين من عمره ، كانت حياة طهر وعفاف ، وصلاح واستقامة. ولو أنه كان شهوانيا مفرطا فى حب النساء لاقتنى أكثر من امرأة ، وبخاصة وأنه كان شابا ، ولم توجد أمامه عقبة تحول بينه وبين التمتع بالنساء . أما وأنه قد تزوج بأكثر من امرأة ، وهو بعد الأربعين ، وبعد أن شغل بنشر الرسالة ، وحمل أعباء الجهاد ، فهذا لايرجع إلى نزوات حيوانية ، وإنما يرجع إلى ظروف خاصة ، هى التى سبقت الإشارة إليها . واستشهد كاتب المقال بأقوال المنصفين من كتاب الغرب ، وكلها فى مدح النبى صلى الله عليهِ وسلم ، والثناء عليهِ ، والإشادة بطهره وعفافهِ ، واستقامتهِ ونزاهته .

* * *

على أن فترة الشك لم تطل عند منصور فهمى ، فقد رجع إلى حظيرة الإسلام منذ سنة ١٩١٥ ، وله خطبة ألقاها فى الاحتفال بعيد الهجرة سنة ١٣٦١ هجاء فيها :

« . . . ذلك لأننا فى هذا اليوم المحتفى بمقدمه ؛ قد نتسمع فى صميم وجداننا المرهف صوتا مدويا ينبعث من خلال هذه القرون الخالية ، ليلاقى فى سمعنا أنشودة البطولة المحمدية الرائعة ، ويهز عواطفنا لمطالع دين جديد ، إنسانى سمح عظيم . ويذكرنا بروائع الجهاد البالغ ، حين حمل رسول الله صلى الله عايه وسلم أمانته ، فماها واثقا لكى يبلغها إلى الناس كاملة . ولكى تتشخص على الأرض نعمة الله ، حين يضع للناس دستورا ، ويرسم لحياتهم نظاما يؤمنهم من وساوس الشك ، وينقذهم من تضليل الارتياب » .

وله خطب كثيرة ومقالات تدل على عمق إيمانه بالله ، وعلى تمسكه بالدين الإسلامى.

* * *

٢ — طه حسين

فى سنة ١٩٢٦ م أصدر طه حسين كتابه : « فى الشعر الجاهلي » . وقد جاء فى ص ٢٦ مانصه :

« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا ، أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى » .

ثم قال أيضا فى الصفحة المذكورة :

« ... فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ، ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة، إنما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ، ويبثون فيه المستعمرات . فنحن نعلم أن حروبا عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين ، وبين العرب الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد ، وانتهت بشىء من الملاينة ، ونوع من المحالفة والمهادنة ، فليس ببعيد أن يكون هذا الصلح الذى استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد ؛ منشأ هذه القصة التى تجعل العرب واليهود أبناء أعمام ، لاسيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئا من التشابه غير قليل ، فأولئك وهؤلاء ساميون » .

وقال فى ص ٢٧ ما نصه :

« وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة فى القرن السابع للمسيح .

* * *

وقد استدعت النيابة العمومية المؤلف وحققت معه ، وكان التحقيق منحصرا فى النقط الآتية :

١ — مسألة وجود سيدنا إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما ، وأن هذه القصة أسطورة مختلقة لأغراض دينية وسياسية .

٢ — مسألة أن القراءات السبع للقرآن الكريم لم تنزل ، وأنها وردت على لسان القبائل ، كما هو ظاهر من لهجاتها .

٣ — قوله إن الإسلام ليست له سابقة وجود فى البلاد العربية .

٤ — نفى إسناد نسب النبى صلى الله عليه وسلم إلى أشراف قريش .

* * *

وقد أجاب المؤلف فى التحقيق بأنه يقرر صدق هجرة إسماعيل عليه السلام إلى مكة، ويؤمن بقصة بناء الكعبة كما وردت فى القرآن ، ويؤمن بتنزيل القراءات ، بصفته مسلما معتقدا، ولكنه لايقرها بصفته عالما أديبا ، وقال إن عدم إقرارها هو الطريق الوحيد العلمى للوصول إلى حقائق الشعر الجاهلى وتاريخه . وأنه عند ما ألف كتابه قال صراحة إنه لن يعرض للدين ، وأنه سيقصر بحثه على العلم والاستدلال بالعلم .

وسأله المحقق عما إذا كان يعتقد أن القرآن وحده كاف لإثبات الوقائع التى وردت فيه فأجاب على ذلك مقسما الوقائع إلى قسمين :

١ — الحوادث المعاصرة لنزول القرآن ، وهو صحيح .

٢ — الحوادث التى حدثت قبل نزول القرآن . فهى عبارة عن قصص أراد الله بها إقناع عبيده وهدايتهم ، وهى تنطبق على مسألة الهجرة وخلافها من المسائل .

* * *

فطه حسين يقرر أنه كمسلم مؤمن بالإسلام ، يعتقد بصحة كل ما جاء فى القرآن الكريم عن إبراهيم وإسماعيل ، ولكنه كعالم وأديب لايؤمن ولا يقر بشىء مما تقدم.

فهو يعيش بعقلين فى وقت واحد : عقلية المتدين المؤمن، وعقلية العالم الذى يكفر بما جاء به دينه .

وإن الآراء التى أوردها المؤلف عن القرآن الكريم مأخوذة من كتب المبشرين ، وأعداء الإسلام من المستشرقين وبخاصة اليهود . وقد فندها كثيرون من الباحثين ، وردّ عليها كتاب مشهورون ردودا قوية مسهبة .

و لطه حسين مؤلفات دينية مثل : على هامش السيرة ، ومرآة الإسلام .



٣ ـــ أمين الخولى

عين الشيخ أمين الخولى ، وهو من خريجى مدرسة القضاء الشرعى ؛ مدرسا بقسم اللغة العربية بالجامعة المصرية، فرأى طه حسين يدعو إلى دراسة القرآن دراسة فنية عبر عنها بقوله[1] «إذا كان من حق الناس جميعا أن يقرءوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفنى . فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ، مادام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هى كتب مقدسة ، فلا يغض منها ، ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد . وبعبارة أوضح : لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم فى هذه الكتب من حيث هى موضع للبحث الفنى والعلمى ، بقطع النظر عن مكانتها الدينية ؟ ! .

فاعتنق أمين الخولى هذه الآراء ، وراح يروج لها ، ويدعو إليها . وقد كان يدرس مادتى التفسير والبلاغة ، وظل أمره مستورا إلى سنة ١٩٤٧ ، لا يدرى أحد فى خارج الكلية ما يلقنه أمين لتلاميذه من أنواع الكفر والضلال .

ففى هذه السنة ـ ١٩٤٧ ـ تقدم أحد الطلبة برسالة موضوعها « الفن القصصى فى القرآن الكريم » للحصول على درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية ، وكان أمين هو

(١) فى الصيف لطه حسين .

المشرف على هذه الرسالة ، والموجه للطالب فيما كتب . وقد رفضت الرسالة ، فرفع الطالب الأمر إلى وزير المعارف الذى أحال الرسالة إلى الشيخ محمود شلتوت ، عضو جماعة كبار العلماء ؛ للنظر فيها ، و إبداء الرأى .

فكتب فضيلته تقريراً جاء فيه :

يذكر المؤلف أن الذى دفعه إلى هذا البحث مارآه من :

١ ـ أن المستشرقين يطعنون على القرآن فيما جاء به من قصص وأخبار ، يرون أنها لا تتفق والواقع التاريخى الذى يعلمون ، وأنها تدل على جهل محمد بالتاريخ .

٢ ـ وأن المسلمين منذ عهد النفر الأول الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم قد استقبلوا كل ماذكر فى القرآن على أنه تعبيرات جادة ؛ يراد بها معانيها فيما جاءت به . وتأثرت عقليتهم بما جاء من الآيات الدالة على أنه يقص أنباء الغيب التى لم يكونوا يعرفونها ، فقالوا إن أخبار الأولين آية صدق النبى ، ودليل على إعجاز القرآن .

ثم يجمع بين هؤلاء المسلمين ، وأولئك المستشرقين فى حكم واحد ، إذ يقول :

« وليس من شك عندى فى أن مصدر الخطإ فيما ذهب إليه من آمن بهذه الأشياء ، وصدق كل ما فيها من تاريخ ، أو من أنكرها وادّعى أنها أخطاء تاريخية ، أو قصص ملفقة ، جهل أولئك وهؤلاء ، أو تجاهلهم لما بين الأدب والتاريخ من علاقات » .

هذا هو أهم ما دعاه إلى أن يسلك سبيلا آخر فى فهم القرآن ، سماه « الفن القصصى » ورأيه فى ذلك يتلخص فى أن القصص القرآنى نمط من أنماط القصة الفنية التى لا يلتزم الفنان فيها الصدق وتحرى الواقع ، وإنما يعطى نفسه من الحرية ما يغير به ويبدل ، ويزيد ويخترع .

ولا يقف بهذا عند قصة أو قصص بعينها ، ولكنه يطرد هذا الشأن فى كل ما قصه القرآن ، سواء فى ذلك ماجاء عن الأنبياء والرسل والأمم ، وما جاء عن غيرهم ، فيذكر قصة آدم وإبليس ، وقصة الخليقة والملائكة ، وقصة كلام عيسى فى المهد ، ونجاته من

اليهود ، وأنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه ، وقصة موسى والعبد الصالح ، وقصة أهل الكهف ، وقصة سليمان والهدهد ، وقصة ناقة صالح ، إلى غير ذلك .

ثم لا يقف عند القصص القرآنى ، بل يطرد هذا الحكم ، أيضا ، على غيره مما جاء فى الكتاب الكريم من أوصاف ، ونسب ماضية كانت أو مستقبلة . فيذكر سؤال الله لعيسى يوم القيامة : (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ[1]) ويذكر مثل قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[2]) .

يذكر ذلك وأمثاله فى مجال ما يقرره من أن القرآن ليس فيه ما يدل على أن حوادث هذه القصص تلتئم مع الواقع الفعلى ، أو لا تلتئم ، وأن هذه النسب والأوصاف تصدق أو لا تصدق . وإنما هو أسلوب قصد به غرس فكرة وراء ما تدل عليه الألفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة ، أو مشايعة الواقع النفسى الذى كان سائدا عند المعاصرين ، استغلالا لمعلوماتهم ، وإن لم تكن صحيحة ؛ فى سبيل تأييد الدعوة التى جاء بها .

وقد زعم أن هذا تأويل للآيات ، وخاصة آيات القصص التى هى عنده من المتشابه ، يجرى فيها مذهب السلف ، ومذهب الخلف من التسليم ، أو التأويل .

ويستند إلى ما عرف عن العرب من التمثيل ، وما جاء فى بعض تمثيلات القرآن وتشبيهاته على هذا الأسلوب الذي لا ينظر إلى الواقع ، وإنما يجرى الكلام فيه على ما ألفه العرب فى هذا الباب ، كما زعم أن بعض المفسرين يقولون بمثل هذا ، إيماء أو تصريحا ، وقد ذكر منهم الإمام الرازي ، والإمام محمد عبده .

هذه خلاصة فكرته ، وأهم عناصرها وعواملها .

• • •

ولا ريب أن هذه الأسس التى بنى عليها الكاتب بحثه ، أسس فاسدة . فما كان

---

(١) المائدة آية ١١٦ .

(٢) البقرة آية ٦ .

القرآن ليخضع فيما قصه من الأنباء لما زعموه من تاريخ يناقض أو يخالف ما جاء فيه . فإن حال التاريخ قبل الإسلام ، كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده نفسه « كانت مشتبهة الأعلام ، حالكة الظلام . فلا رواية يوثق بها ، ولا تواتر يعتد به بالأولى » يقول هذا الشيخ محمد عبده فى نسبة قصص القرآن إلى التاريخ ، ومقارنتها به ، وقد قال فى هذا الصدد قبل ذلك « يظن كثير من الناس الآن ، كما ظن كثير من قبلهم ، أن القصص التى جاءت فى القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء فى كتب بنى إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق ، أو كتب التاريخ » ثم يقول فى هذا الشأن نفسه « وإذا ورد فى كتب أهل الملل ، أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص ، فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل إلينا بالتواتر الصحيح ، هو الحق وخبره الصادق ، وما خالفه هو الباطل وناقله مخطئ أو كاذب ، فلا نعده شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه » .

وقد ذكر الأستاذ الإمام هذا المبدأ الذى لا يعرف مؤمن سواه فى كثير من مواضع التفسير . وإذن فلا قيام لشبهة يوردها المستشرقون على قصص القرآن وتاريخه ، كما لا قيمة لما يوردونه على تشريع القرآن وعقائده . فالقرآن مهيمن على كل ماسواه من تاريخ وكتب سماوية .

وهو مصدق لها فيما لم يحرف ، ومبين لما كانوا يخفون ويحرفون (يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ[1] ـ إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[2] ـ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ[3]) .

تلك عقيدة المؤمنين . وما كان القرآن ، وقد قامت الأدلة على أنه من عند الله ، بالذي يتحاكم فى قضاياه إلى تلك الجهالات التاريخية ، لاسيما فى حقبة اشتبهت أعلامها ،

(١) المائدة آية ١٦ . (٢) النمل آية ٧٦ . (٣) المائدة آية ٤٧ .

واشتد ظلامها كما يقول الشيخ محمد عبده . أو بالذى تضره مثل هذه الدعاوى التى ألفها الإسلام من خصومه منذ عهده الأول إلى يومنا هذا .

• • •

ولننظر بعد هذا فيما رمى به المسلمين منذ العهد الأول ، عهد المعاصرة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وعهد أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وابن عباس ، وابن مسعود ، ومن إليهم من أصحاب النبي ، وأهل اللسان العربى ، وقد سمعوا من رسول الله ، وتلقوا منه هذا الكتاب الكريم ، وفهموا معانيه التى يدل عليها بمقتضى أساليب اللغة العربية ، وقد طبعوا عليها ، ورضعوا لبانها . واستمر هذا هو الشأن على جميع عصور المسلمين وعهودهم مدى أربعة عشر قرنا .

ننظر فيما رمى هؤلاء جميعا به من جهل أو تجاهل ، أو تأثر بما يخالف الواقع أوقعهم فى فهم القرآن على غير وجهه الذى فطن إليه الأستاذ وأمثاله ممن يتناولون القرآن الكريم بمثل هذه الدراسات .

وختم الشيخ شلتوت تقريره قائلا :

وإن القرآن ؛ إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط ، فقد اقتحمت قدسيته ، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه ، وزلزلت قضاياه فى كل ماتناوله من عقائد ، وتشريع ، وأخبار ، وأحوال مستقبلة كالبعث ، والحشر ، والحساب ، والجنة ، والنار ، ونحو ذلك . وانفتح لكل إنسان أن يقول فى كل هذا : ليس له مدلول ، ولا واقع يدل عليه ، ولكنه سيق لمجرد بعث الرغبة ، أو الرهبة ، أو العظمة ، أو تقويم النفوس ، وإصلاح المجتمعات (سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ[1] ـ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ[2]) .

---

(١) النور آية ١٦ .

(٢) الأعراف آية ١٥٥ .

ذلك هو الرأى فى هذه الرسالة ، وفيما تجرأ به مؤلفها على كتاب الله . وإنها لشر مستطير ، من شأنه أن يفتح أبوابا من الفتن إذا مكن لها ، اجتاحت الدين والعقيدة والقرآن فكانت هى الخالقة .

• • •

وقد وقعت رسالة الطالب فى يد بعض علماء الأزهر ، فأفتوا بكفره ، وبكفر أستاذه الذى أشرف على تحضيرها ووافق عليها .

الفصل الرابع

الحركات الإلحادية بين المسلمين المعاصرين

منذ قامت حكومة مصطفى كمال فى تركيا عملت على تشجيع الحركات الإلحادية أدبيا وماديا . فألفت هناك كتبا كثيرة تهدف إلى التشكيك فى حقائق الأديان كلها ، والدعوة إلى تركها . وكان من ضمن القائمين بهذه الحركة « إسماعيل أحمد أدهم » الذي جاء إلى مصر وحاول نشر الأفكار الإلحادية بين أهلها . وقد ألف رسالة صغيرة عنوانها : « لماذا أنا ملحد ؟ » وطبعها فى مطبعة التعاون بالإسكندرية ومما جاء فيها «أسست جماعة نشر الإلحاد بتركيا . وكانت لنا مطبوعات صغيرة أذكر منها : ماهية الدين، قصة تطور الدين ونشأته ، العقائد ، قصة تطور فكرة الله ، فكرة الخلود » .

« وبعد هذا فكرنا فى الاتصال بجمعية نشر الإلحاد الأمريكية ، وكان نتيجة ذلك تحويل اسم جماعتنا إلى « المجمع الشرقى لنشر الإلحاد » وكان صديقى البحاثة إسماعيل مظهر فى ذلك الوقت ـ ١٩٢٨ ـ يصدر مجلة العصور فى مصر ، وكانت تمثل حركة معتدلة فى نشر حرية الفكر والتفكير ، والدعوة للإلحاد » .

وقد عرف الإلحاد بقوله « الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته ، وأن ثمة لاشيء وراء هذا العالم » .

إلا أن الدعوة الإلحادية بين المسلمين في مصر يرجع تاريخها إلى سنة ١٩٢٤ حينما قام محمود عزمي ، وكتب في صحيفة الأهرام داعيا إلى ترك الأديان لأنها قيود تعوق عن التقدم والرقي .

* * *

وقد جعل إسماعيل مظهر مجلته «العصور» منبرا لنشر الأفكار الإلحادية وترويجها . والطعن على العرب والعروبة طعنا قبيحا ، واتهام العقلية العربية بصفة خاصة ، والعقلية الآسيوية بصفة عامة بالتخلف والجمود والانحطاط . كما سخرها وياللعار ، في خدمة المطامع الصهيونية ، والإشادة بأمجاد بني إسرائيل ونشاطهم وتفوقهم واجتهادهم . وأخيرا سخرها في خدمة التعاليم الشيوعية والآراء الفوضوية التي ينجم عنها التحلل من قواعد السلوك والتجرد من الفضائل المتفق عليها .

وقد حدث أن ظهر في تركيا كتاب عنوانه « مصطفى كمال» للكاتب «قابيل آدم» وفيه مطاعن قبيحة في الأديان وبخاصة الدين الإسلامي . كما تضمن اتهام العقلية الآسيوية بما هي منه بريئة كل البراءة . فلخص إسماعيل مظهر هذا الكتاب في مجلته ، وقدم له بكلمة طويلة جاء فيها :

« من وراء الانقلابات التاريخية والثورات الاجتماعية تكمن البواعث النفسية والانفعالات والمعتقدات ، وفلسفة الحياة التي تقسر الجماعات على أن تهدم ماهو قائم لتشيد عليه بناء من لبنات تربط بينها الأفكار والمنازع العقلية والنفسية التي تكون قد استحدثت على مر الأيام . وليس في التاريخ الحديث كله من انقلاب هو أشبه بالطفرة منه بأي شيء آخر كالانقلاب التركي الحديث . وهو ككل انقلاب أو فورة فجائية تكمن وراءه بواعث نفسية ومعتقدات وانفعالات تكون لدى الواقع في مجموعها فلسفة توجه الفكرات

والآراء إلى وجهة فى الحياة لا يظهر منها إلا نتائجها التى تتجلى فى المعـــاهد التعليمية والنظامات السياسية والاجتماعية » .

« بهذا يؤمن كل من درس حوادث التاريخ مطبقة على علوم الاجتماع الحديثة . فإذا كان هذا هو الواقع ، وإذا اعتقدنا بأن وراء الظواهر الملموسة فى الانقلاب التركى الحديث قد كمنت فلسفة ساقت إليه ؛ كان الوقوف على حقيقة هذه الفلسفة أمر ضرورى للحكم على قيمة هذا الانقلاب ، ومقدار ثباته وقوته ، ومقدار تأثيره فى الإدراك العام ، أو كما يدعونه اصطلاحا : العقلية العامة التى تتكون من مجموع الأغراض التى يرمي إليها زعماء الانقلاب » .

إلى أن قال : « وضع هذا الـكتاب ــ أى كتاب مصطفى كمال ــ مؤلف من الظاهر أنه أحاط كثيرا بتاريخ تطور الفـكر الإنسانى ، وعلى الأخص بتاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم فى العصور الوسطى . ولقد طبق المبادئ التى استخلصتها العقلية الأوربية من طريق جهادها الطويل إزاء اللاهوت على الحالة الواقعة فى الشرق أحسن تطبيق ، وعرف كيف يظهر آراءه وأفـكاره فى قالب جلىّ واضح ، ونجح كل نجاح فى إظهار الفرق بين العقلية الآسيوية كما سماها ، وبين العقلية الأوربية ، وقضى بأن العقلية الأوربية ارتقائية فى حين أن العقلية الآسيوية رجعية جامدة » .

أما الآراء التى أوردها المؤلف التركى فى كتابه ، والتى وصفها إسماعيل مظهر بالأصالة والصحة فنذكر منها :

« . . . وما من سبب لذلك التنابذ الشديد الذي قام بين فريقى الأمة التركية إلا وجود هذه العقلية ــ أى العقلية الأوربية ــ فى ناحية ، حيث تقوم فى ناحية أخرى العقلية الدينية العربية » .

« لم تسلم الأمم الآسيوية يوما ما من الفقر والتعاسة ، وليس لهذا من سبب سوى أنها اعتادت أن تستقرئ أحكامها المعاشية كلها من تشريعها الدينى المقدس . ولن تقف على

طابع آخر غير هذا إذا ماقلبت تاريخ مصر ، والهند ، وفارس واليابان القديمة ، والصين، وطوران، وبلاد العرب . فإن هذه الأمم لجهلها قد نسبت لأمرائها وسلاطينها ، أو لغيرهم من مقدمي الاتنهازيين صفات قدسية حينا ، أو سلطة إيحائية حينا آخر . وكان من نتائج هذه العقلية أن ترددت الأمم الآسيوية فى هذه التعاسة والشقاء » .

« ... والحالة جلية واضحة . فلست تجد فى أوربا مثقفا أو غير مثقف يمضى فى أعماله متواكلا على سلطة الوحى . أما فى آسيا فإنك لاتجد شيئا اللهم إلا الأنبياء والقديسين، والحكام الذين يستمدون سلطتهم من الله مباشرة ، تجد الأوامر والنواهى القدسية متغلغلة فى تضاعيف العديد الأوفر من الشئون الخاصة الصرفة للناس، متحكمة فى كل وجه من وجوه حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والتجارية والإدارية . ولديهم أن هذه الأوامر والنواهى هى أوامر الله ونواهيه ، وعلى هذا لا يمكن تبديلها أو تكييفها » .

« فإذا تبدل الزمان وتكيف ، وجمدت هذه الأوامر والنواهى مقصرة عن اللحاق بروح العصر نشوءا وارتقاء ؛ لاتجد من شيء اللهم إلا نبيا آخر مرسلا بتعاليم جديدة . ولا مرية فى أن تتابع ظهور الأنبياء فى آسيا طابع خاص بها ، لاتفاضلها فيه بقعة أخرى من بقاع الأرض » .

« على أن أعجب ماترى فى كل هذا أن كل نبى من هؤلاء الأنبياء قد نصح للناس وأهاب بهم أن ينكروا حقيقة هذه الحياة بكل مافيها ، وأن يتلظوا حرقة إلى الحياة الآخرة . وفى هذا ينحصر كل ما يقصد بوذا من النرڤانا ، وكل مايقصد الإسلام من الفردوس . وهذه العقلية قتلت فى الشرق فكرة النقد ، كما غشت على العقول والأفهام بأغشيتها الثقيلة » .

« بيد أن هؤلاء الأنبياء الذين حكموا الدول ، وساسوا الممالك ؛ لم يقنعوا بأن يفرضوا على الناس أوامر الدين ونواهيه ، بل صبغوهم بأخلاقهم . ودهنوهم بطلائهم . فإن الإسلام مثلا قد صبغ المسلمين ، فضلا عن الدين ، بصبغة الحياة العربية الاجتماعية في كل مكان

وآن : واضطر الناس على أن يقبلوا مذعنين ، لا الله ولا الدين وحدهما ، بل حياة العرب العائلية والاجتماعية ، والخلق العربى ، والعادات العربية بصورة كلية ، واللغة العربية بصورة جزئية » .

« لقد لعن بوذا هذه الحياة . وكذلك مذاهبنا القديمة ، فإنها لم تعمل إلا لتمهد الطريق للحياة الأخرى. ولقد أخذت أمم آسيا كلها بموحيات هذه التعاليم النظرية . وعلى هذه القاعدة قيد اللاما أمة الصين ، والبراهمة أمم الهند ، والآخوند أمة الفرس ، وأئمة الإسلام تركيا . أما العقلية التى اختفت وراء هذه التعاليم فتتكون فى الاعتقاد بما يأتى :

١ — إن الحقيقة لا يمكن معرفتها بالعقل ، بل بالتقاليد .

٢ - إن الحياة لايجب أن تحكم بمقتضى المبادئ الإنسانية المستمدة من غرائز الإنسان ، بل بمقتضى الشرائع المنزلة التى لا تتبدل ولا تتغير .

٣ - هذه الحياة فانية ، والأخرى باقية .

٤ - نسبة كل شىء إلى القضاء والقدر .

٥ — رفض الاعتقاد بضرورة الحياة القومية ، والعكوف على الخضوع للتقاليد الدينية .

٦ — الخضوع الكامل للرئيس الروحى » .

«وهذه القيود الحديدية، والأصفاد الثقيلة لم تترك للأمم الآسيوية من فرصة للخلاص. ولقد كانت هذه العقلية بمثابة تجربة حاول واضعوها أن يعرفوا إن كانت بذاتها وسيلة ناجحة للقضاء على الحياة والإنسان . ولا مرية فى أنها قطعت كل علاقة كائنة بين الناس والحياة الدنيا » .

« إن أهل الكلام من المسلمين لم يعنوا بتحرير الضمائر والأفكار ، كما أن التشريع الإسلامى لم يَحْبُ أهل الإسلام بحق الحياة والعمل . إن أهل الكلام قد أعاقوا العقل عن النماء والتطور ، كما أعاقت النظم التشريعية تطور الشعور الاجتماعى ، فنتج عن ذلك أن

أصبح من أقصى المستحيلات أن يقع فى آسيا انقلاب ثورى لا فى الصورة العقلية ، ولا فى النظام الاجتماعى » .

« لم تكن الديانات فى تاريخ آسيا كلها إلا حركات رجعية أملتها الغيرة التى تزود بها كل رسول جديد ضد الرسل الأقدمين . إن ديانات آسيا كافة واحدة فى جوهرها . فإن تعاليم بوذا ، وكونفوشيوس ، وبراهما ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، كلها واحدة . فإن اختلفت فإنها إنما تختلف فى التفاضل ، لا فى القواعد » .

« ماهى الأسباب الأولية التى أحدثت تلك الفروق الكائنة بين العقلية الآسيوية والعقلية الأوربية ؟ » .

« يجب علينا أن نعى بداءة ذى بدء أنه لم يقم فى أوربا من نبى مثل بوذا ، أو كونفوشيوس ، أو موسى ، أوعيسى، أو محمد، ممن حملوا إلى الناس أوامر ونواهى إلهية ، ثم ألزموهم الخضوع لها قسرا وجبرا » .

هذه هى بعض آراء المؤلف التركى التى أخذها إسماعيل مظهر بعقليته الحمارية كأنها قضية مسلم بها ، لاتقبل الجدال ولا النقاش ، وشرع يطبل لها ويزمر .

ولو أن هذا الكاتب ألف كتابه فى هذه الأيام لجاءت آراؤه مغايرة لما تقدم . فالشعوب الآسيوية قد تحررت وهى سائرة فى طريق النهضة والتقدم والرقى ، وبذلك حطمت النظرية القائلة بتخلف العقلية الآسيوية وقصورها . والشعوب الآسيوية استطاعت أن تحافظ ، مع نهضتها ، على كيانها وتقاليدها وأديانها وعاداتها القومية . والشعب اليابانى الذى تفوق على الشعوب الأوربية حضارة ومدنية كان إلى وقت قريب يعبد الميكادو ، والمعابد البوذية منتشرة فى جميع أنحاء اليابان .

ولماذا أهمل المؤلف الكلام على العقلية الأفريقية؟ وإذا كان سبب تخلف الشعوب الآسيوية يرجع إلى وجود الأديان بها . فما هو السر فى تخلف الشعوب الأفريقية ؟ وما هو السر فى اندثار شعوب أمريكا واستراليا ؟ وهاهى تركيا قد تخلت عن الأديان ، وتبرأت

من السمات الشرقية ، واتخذت الأساليب الأوربية فى جميع مرافق حياتها ، ومر على ذلك أكثر من ثلث قرن . فما هى الاختراعات التى توصل إليها الأتراك بعد انقضاء هذه المدة الطويلة ؟ وأين هى المصانع التركية ؟ وما قيمة مصنوعاتها بالنسبة للمصنوعات المصرية والهندية ؟ وما هو مبلغ الاقتصاد التركى من القوة والمتانة ؟ وكم تبلغ ميزانية التعليم فى تركيا إذا قيست بميزانية التعليم فى الجمهورية العربية المتحدة مثلا ؟ وهل اختفت مظاهر البؤس والشقاء من تركيا ؟ وهل يمكن أن يقال إن الشعب التركى بلغ من حيث الرقى والتقدم إلى مستوى شعب السويد مثلا ؟ وهل غزت الصادرات التركية الأسواق ، وأصبحت منافساً خطيرا لغيرها من الصادرات ؟ إن الجواب عن كل هذا قطعا ، بالنفى . وإذا كان الأمر كذلك ، فما هو السر فى بقاء تركيا متخلفة عن الشعوب الأوربية مع أنها اتخذت أساليب أوربا ، وعاشت بعقليتها منذ مدة طويلة ؟ ؟

إن اتهام الأديان بأنها كانت سببا فى تخلف الشعوب الآسيوية اتهام باطل . ولا يستطيع عاقل أن يقول إن بولندا مثلا أقوى من الصين ، أو بلغاريا أقوى من الهند ، أو رومانيا أقوى من الجمهورية العربية المتحدة ، أو اليونان أقوى من العراق . والشعوب الآسيوية هى التى هزمت الاستعمار الغربى وأجلته عن بلادها .

أما القول بأن الإسلام كان سببا فى تخلف تركيا فإنه يدل على جهل بالتاريخ . فالإسلام كان مصدر قوة عظيمة للعرب ، وبفضله استطاعوا أن يخرجوا من بلادهم الصحراوية ، ويؤسسوا لإمبراطورية واسعة وما ذنب الإسلام إذا كان الأتراك لم يفهموا منه سوى الدروشة وتكبير العمائم وتطويل اللحى ، وإمساك المسابح ، وإنشاء التكايا ؟ هل هناك آيات قرآنية تحرم علينا إنشاء المصانع والمدارس ؟ ويكفى فى هذا المقام أن نسوق شهادة شبلى شميل ، وهو ملحد من أصل مسيحى . قال فى عدد يناير من مقتطف سنة ١٩١٠ مانصه :

« خذ مثالا شريعة القرآن ، فإنها بين الشرائع الدينية الشريعة الوحيدة الاجتماعية

العملية المستوفاة التى ترمى إلى أغراض دنيوية حقيقية ؛ بمعنى أنها لم تقصر على الأصول الكلية الشائعة بين جميع الشرائع ، بل اهتمت اهتماما خاصا بالأحكام الجزئية ، فوضعت أحكام المعاملات، حتى فروض العبادات أيضا . وهى من هذه الجهة شريعة عملية مادية ؛ حتى أن الجنة نفسها لم تخرج فيها عن هذا الحكم » .

* * *

اعتنق إسماعيل هذه الآراء وراح يروج لها فى مجلته ، وينسج على منوالها ، فكتب فى عدد مارس سنة ١٩٢٨ مقالا جاء فيه :

« لم تحدد الأديان فكرة كاملة فى واجب الوجود يرضى بها العقل المستقبل فى دور ما من أدوار النشوء الفكرى، بل إن الأديان ألزمت الناس فيما ألزمتهم به الاعتقاد بوجود الله متخذة من سلطتها الاستعلائية مبررا إلى هذا الإلزام » .

ثم قال « أما تفكير الإنسان الجدى فأصبح فى تحديد علاقته ، لا بواجب الوجود ، ولكن بالكون ، فبعد أن أسقط العلم الإنسان عن عرش الملائكة العلوى، وأنزله إلى أفق الحيوان ، أخذت الإنسان فكرة جديدة ، ليست بأقل إشكالا من الفكرة التى ملكت زمامه من ناحية الأديان » .

« بعد أن أظهر النشوئيون أصل الإنسان الحيوانى ، وأثبتوه علميا ، وبعد أن أثبت الجيولوجيون قدم الأرض ، والفلكيون قدم النظام الشمسى ، وأظهر هؤلاء بأبحاثهم سلسلة التدرج الطويل التى مضى عليها الكون لينتهى بظهور الحياة فوق الأرض ، أخذ العقل الإنسانى سمته نحو التفكير كما هى عادته فيما يختفى وراء هذه السلسلة الطويلة من قصد ، وهل كانت متجهة بكل مافيها من الصور لأن تنتهى بالإنسان على أنه القصد الأخير منها ؟ » .

« أما الثابت حتى اليوم فليس مما يرضى نزعة التفاؤل فى مصير الإنسان ، ولست أدرى لماذا لايشارك الإنسان الحيوانات فى نهايتها المحزنة ؛ مادام يشاركها فى بداياتها الجميلة ؟ » .

وكتب فى عدد مايو سنة ١٩٢٨ مقالا جاء فيه :

« ... على أن ظهور الأنبياء والرسل كان محدودا فى بقعة واحدة من بقاع الأرض؛ تحدها شمالا جبال طوروس، وجنوبا صحراء اليمن، وشرقا صحراء نجد، وغربا البحر الأحمر، فى هذه البقعة الصغيرة ظهر كل الأنبياء والرسل الذين اختار الله أن يكونوا هداة البشر منذ أبعد العصور التى نزل فيها الوحى على قلب إنسان . ولست تجد فى ذلك من حكمة تقع عليها ، أو أثر للتدبير وحسن القصد » .

« فهل كانت الشعوب التى ظهرت فيها الأنبياء والرسل الذين حملوا رسالة من الله؛ هى أكثر شعوب الأرض ضلالا وعدوانا ، وأشد كفرا وطغيانا ؛ ليستقوى الله عليهم بهذه المجموعة الكبيرة من الأنبياء والرسل ؟ وهل كان سكان سوريا وجزيرة العرب أكثر استحقاقا لعناية الله من سكان الصين أو غرب أوربا؟وهل كانت هداية الشعوب التى سكنت هذه البقاع كافية لهداية شعوب الأرض كافة إذا ما اهتدوا ؟ » .

« حقا ! إن هذه الظاهرة وحدها كافية لأن تبعث العقل على التأمل والاسترسال فى سلسلة طويلة من التفكير لاينتهى بها إلا حيث انتهى فلاسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر » .

« قد نتساءل : كيف ترك أهل الهند نهبا لمذهب بوذا وبراهما ؟ وأهل الصين غرضا لمذهب كونفوشيوس ؟ وأهل كل بقعة من بقاع الأرض خاضعين لأساطير وخرافات ما أنزل الله بها من نبى ولا رسول ؟ أكان هذا لحكمة لاتدركها العقول البشرية ؟ هذا آخر ما يلجأ إليه اللاهوتيون ، ونهاية ما تنتهى إليه مجادلاتهم » .

* * *

« تكونت فى عقلية الإنسان فكرة ؛ أنه مركز الكون ، ومحور دائرة الوجود من أجله خلقت السموات والأرض . ومن أجله سخرت الرياح والأشجار والحيوانات .

ومن أجله وضعت الجبال لئلا تميد به الأرض . ومن أجله جرت الأنهار مترعة بالماء ، وغورت البحار لتصلح لها جو كرته الأرضية » .

« ولعمرك أى شىء أكثر قربا من بداهة العقل فى غرارته الأولى من معتقد كهذا يقوم نتيجة لما ثبت فى روع الإنسان من أنه خلق على مثال الله ، وأنه خلق وحده مميزا على جميع الكائنات ، وأن الله حبا فيه وشفقة عليه؛ أخذ يرسل إليه بالرسول تلو الرسول ليهديه الصراط السوى ، وليدخله وذراريه إلى الجنة زمرا خالدين فيها أبدا . وأنه أعدّ له هنالك الأنهار تفيض عسلا ولبنا، وقصورا بنيت بالفضة والذهب، وحورا عينا لم يطمثهن قبله إنس ولا جان ، وولدانا مخلدين يطوفون بأكواب من فضة ؟ » .

« هذا الأثر الذى خلقته هذه المعتقدات فى عقلية الإنسان فى العصور الوسطى، كان نتاجا لمعتقدات ذاعت فى ديانات الوثنية فى بابل وآشور ، والكلدان ، ومصر ، والهند ، والصين » .

« كانت موحيات الأديان فى صورها الأخيرة آخر ما كفل هذا الرأى لترضعه بلبان الكتب المقدسة ، وتغذيه بتفسيرات المفسرين لها . لهذا لانتلكأ مطلقا فى القول بأن المعركة التى دارت حول أصل الإنسان؛ هى فى الواقع معركة قامت بين العلم والدين، فانتصر العلم وهزم الدين، ونزل الإنسان عن عرش الملائكة إلى عرش الحيوانات » .

* * *

وكتب مقالا آخر تحت عنوان « الغاية من وجود الإنسان » جاء فيه :

« هذا السؤال هو أعضل المشكلات ، وسر الأسرار، اكتفت الأديان بالقول بأن الغاية من خلق الانس والجن : هى أن يعبدوا الله ، فكرة حسنة ولكنها غير صحيحة . إذ لو صح هذا إذن لاعتقد بجانبه بأن الله فى حاجة لأن يعبده الانس والجن ، ولظهر النظام الكونى فى مجموعه بمظهر شىء ما خلق إلا ليعضد الحياة الانسانية التى يجب أن تسخر لعبادة الله . وهذا فى معتقدى أبعد الأشياء عن أن يكون الغاية من وجود الانسان » .

وكتب فى العدد الأسبوعى من « العصور » الصادر فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « استفتاء » .

« جاء فى القرآن الكريم (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ[1]) وقد دل العلم الصحيح على أن السماء غير مزينة بمصابيح ، بل هى فضاء غير متناه ، تناثرت فيه كرات عظيمة هائلة الأبعاد ، ومنها مايستمد ضوءه من غيره . ومنها ماهو ملتهب كشمسنا . فهل الاعتقاد بأنها ليست مصابيح مخالف للدين ؟ » .

« وجاء فى القرآن الكريم (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ[2]) وقد أثبت العلم أن السماء لا أبواب لها ، وأن الماء إنما يتساقط على الأرض بعد أن يتكاثف سحابا ، وبعد أن يعلو متبخرا من مياه الأرض . فهل هذا الاعتقاد تجديف ؟ وهل يجب أن نعتقد أن للسماء أبوابا من فوقها بحار ، إذا فتحت انهمر المطر ، وإذا أقفلت أمسك عن الانهمار ؟ » .

« وجاء فى القرآن الكريم (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا[3]) » .

« والثابت الآن أن الشهب عبارة عن نازك هي قطع منفصلة عن سيارات أو كرات أخرى هامت فى الفضاء . فإذا بلغت منطقة جاذبية الأرض تحولت نحوها ، فإذا اصطدمت بجوها احترقت من قوة الاحتكاك ، فلاحت كأنها نار تخترق الفضاء . فهل هذا الاعتقاد وهو من المبادئ الأولية فى العلم ، إذا استمسك به أحد وجب جره إلى محكمة الجنايات ؟ »

« وجاء فى القرآن الكريم (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَسْجُدَانِ[4]) وقد عرف الآن أن

---

(١) الملك آية ٥ .　　(٢) القمر آية ١١　　(٣) الجن آية ٨ .

(٤) الذى جاء فى القرآن الكريم (والنجم والشجر يسجدان) وهى آية ٦ من سورة الرحمن . وفى سورة يوسف آيه ٤ (إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) وهى مجرد رؤية رآها سيدنا يوسف عليه السلام فى المنام .

الشمس والقمر كرتان ، إحداهما ملتهبة ، والأخرى صماء ، فكيف يسجدان بمعنى السجود المعروف؟

• • •

ولم يقتصر إسماعيل مظهر على نشر الأفكار الإلحادية ، والطعن في الكتب المقدسة وتكذيبها ، وبخاصة القرآن الكريم ، بل أخذ يروج للاباحة والاستهتار بمقومات الأخلاق . انظر إلى ما كتبه تحت عنوان : « قصة الشيخ حسين ، وكيف شك ثم ألحد؟ » وهو :

« . . . وصاحب شيخنا ذات مرة بعض الشبان إلى سوق المدينة حيث اشترى أحد الذين معه فسيخاً ، فلم يضبط الشيخ نفسه ، بل شاركه الطعام على نية أنه سيصوم بدل اليوم يومين ، وكان ذلك فى رمضان . وكم كان ألمه عظيما عند ما حل موعد الافطار ، فأنبه ضميره أشد التأنيب على مخالفته لأبسط قواعد الدين، وبات ليلته كالملسوع خوفا من أن يمسخه الله قردا ، أو عمودا من ملح ، كما ذكر فى بعض بطون الكتب. ولكن الشمس أشرقت فقام على رجليه معافى ، فلمعت عيناه استهزاء بمخاوفه التى لا محل لها ، فأغرق فى الافطار ما شاء له نهمه ، وانقضى رمضان ، والأهل يبحثون عن سارق المأكولات بين أولادهم ، ولم يخطر ببال أحدهم أن الشيخ العفيف هو اللص » .

« وقرب وقت امتحان الشهادة الابتدائية ، فدخله صاحب الفضيلة وأسنانه ترتعد فرقا من السقوط فيه للمرة الثالثة . فزين له الشيطان ، على حد قول العلماء الأعلام ، أن يوقف الصلاة طيلة مدة الامتحان ليجرب حظه دون صلاة، وبالفعل أشاح بوجهه عن مقام السيدة الطاهرة الذى طالما قصده قبل دخول الامتحانين السابقين ، متشفعا عساها ترشد يديه لكتابة إجابات صحيحة. وفى ذات ليلة بينما كان منفردا بأحد أترابه الذين نالوا حظا من الجمال ، سولت له النفس الأمارة بالسوء أن يرتكب أمرا إدّا . ففعل مدفوعا بيد سوداء أعمت عينيه عن الطريق السوى . ولكنه فوجئ ببشرى النجاح فى الامتحان

قسر كل السرور . ومن سوء حظه أوصله عقله إلى الاعتقاد بأن حسن السيرة لايؤهل الإنسان للنجاح ، أو بالأقل لاتوجد صلة بين هذا وذاك . وهكذا قطع صلته بفروض الله ولكن فى الخفاء » .

إلى أن قال « . . . فوجد أن كل المعجزات ليست إلا خرافات وسخافات، وهكذا طلق الدين ثلاثا ، وأصبح ملحدا » .

• • •

وكان يعاون إسماعيل مظهر فى تحرير مجلته : حسين محمود ، وعمر عنايت ، وكامل كيلانى . انظر إلى ما كتبه عمر عنايت نقدا لكتاب : «تاريخ اليهود فى بلاد العرب» لإسرائيل ولفنسون فى عدد ديسمبر سنة ١٩٢٧ وهو :

« إن روح الموضوع ولا شك تنحصر فى مقدار الأثر الذى تركه اليهود فى بلاد العرب، ومبلغ تأثيرهم فى إعداد العقلية البدوية لاقتبال تعاليم الإسلام، وهو ـ أى المؤلف ـ معذور لعدم مسه هذه النقطة جديا ، لأن الجو غير قابل لهضم أمثال هذا البحث ، خصوصاً وأن صاحبه موسوى » .

إلى أن قال : « وكم كنت أود لو أخرج الدكتور بحثه هذا بلغة أجنبية ليقرأه وسط أرقى من هذا الوسط ، حتى كانت تتجلى مقدرته تماما فى كلامه عن روح هذا العصر » .

فعمر عنايت بلغ حقده على الإسلام والمسلمين إلى درجة أنه تمنى لو أن إسرائيل ولفنسون ألف كتابه بلغة أجنبية وطبعه فى خارج مصر وملأه بالمطاعن القبيحة فى الإسلام ونبى الإسلام . فهذا هو العمل القيم فى نظر عمر عنايت . والوسط الأجنبى عنده أرقى من الوسط المصرى ، لأن الوسط الأجنبى يرحب بكل ما يكتب طعنا فى الإسلام ، وهدما لأركانه. أما الوسط المصرى الذى لايقبل مثل هذه المطاعن، فهو وسط منحط عند إسماعيل مظهر وعمر عنايت . أو هكذا سولت لهما النفس الخبيثة . وإن المقالات التى دبجها عمر

عنايت فى الدعرة للصهيونية، والتى أوسع لها إسماعيل مظهر صدر مجلته؛لتدل أكبر دلالة على ما كانت عليه تلك الجماعة من الخسة والنذالة ، والخيانة والغدر ، والجحود لا بالله فقط ، ولكن بالوطن كذلك . وإنى لآنف أن أنقل للقارئ شيئا من هذه المقالات .

* * *

أما كامل كيلانى فإنه ترجم فصولا من كتاب : « نظرات فى تاريخ الإسلام » للمستشرق «بندلى جوزى» ونشرها فى «العصور» فىعدد مايو سنة ١٩٢٩ ،وقدمها بقوله: « هذه فصول مختارة من كتاب العلامة المستشرق «دوزى» آثرنا نقلها إلى العربيةلتبيان وجهة تفكير عالم أوربى كبير . وهى وإن خالفت آراءنا أحيانا، جديرة بأن تقرأ بعناية فائقة . فليس كل مالا نرضاه من الآراء خليقا بالطرح والإهمال » .

ومما جاء فى هذه الفصول التى اختارها كامل كيلانى ليتحف بها المسلمين : « كان موت النبى ، الذى كانت تترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر ؛ مؤذنا بالثورة فى كل مكان . ولقد كنت ترى الثائرين فى حيثما ذهبت رافعين علم الثورة والتمرد » .

إن بندلى جوزى باحث كبير فى نظر كامل كيلانى وأمثاله ، لأنه تحقق عنده بعد البحث والتمحيص أن العرب كانوا ينتظرون موت النبى محمد عليه الصلاة والسلام منذ زمن طويل بفارغ الصبر .

* * *

إن الفصول التى اختارها كامل كيلانى ونشر ترجمتها فى مجلة « العصور » بالذات، تدل على سوء نيته ، وفساد طويته ، وقبح سريرته ، وعظيم جريرته ولعله دخل من هذا الباب بدافع من نزق الشباب . وقال مترجما عن الإنجليزية :

كَمْ مِنْ شَرَائِعَ أَبْلَى الدَّهْرُ جِدَّتَهَا   وَأَصْبَحَتْ بَعْدَ حِينٍ طَيَّ أَرْمَاسِ
لِكُلِّ جِيلٍ جَدِيدٍ مَا يُلَائِمُهُ   مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَخْلَاقِ وَالنَّاسِ

لم يجد كامل كيلانى ما يعبر به عن نفسه التى كانت ثائرة على الأديان سوى هذه

المعانى التى صاغها فى البيتين السابقين . فهو يريد أن يقول إن الأديان لم تعد صالحة لهذا العصر .

وأسست جماعة لنشر الإلحاد تحت ستار الأدب ، واتخذت دار العصور مقرا لها ، وكان سكرتيرها كامل كيلانى ، واسمها « رابطة الأدب الجديد » .

* * *

والحق إن إسماعيل مظهر لم تكن له شخصية مستقرة. فبينما هو يسخر قلمه فى اخدمة الاحتلال البريطانى ،فيكتب منتقدا موقف المصريين الذين رفضوا مشروع ثروت-تشمبرلين، حيث يقول :

« الرفض المطلق الذى يشعر بأن مصر أصبحت سيدة البحار ، وأن الشمس لاتغرب عن ممتلكاتها . وأن انجلترا أصبحت بمثابة مديرية بسيطة من مديريات الصعيد الأقصى » .

« إذن فرفض المعاهدة لم يكن إلى ناحية السعى العملي إلى المصلحة العامة ، أدنى منه إلى ناحية التظاهر الأجوف ، لخدمة فكرة الحزبية » .

إذاً هو يكتب مقالات تظهر فيها روح الدعوة الشيوعية . وفى الوقت ذاته يؤلف كتابا عنوانه : « الاشتراكية تعوق ارتقاء النوع الإنسانى » .

وقد انتهز فرصة إجراء انتخابات حرة فى أوائل سنة ١٩٣٠ تمهيدا لقيام حكومة نيابية وألف حزبا دعاه «حزب الفلاح» وأخذ يردد فى مقالاته شعارات الشيوعيين. وكان بعض عملاء الشيوعية من الأرمن واليهود قد جاءوا إلى مصر لنشر آرائهم.قالت صحيفة السياسة فى ٢١ مارس سنة ١٩٣٠ مانصه : « . . . ومنذ أيام قلائل لفتنا نظر الحكومة إلى ظهور الدعوة الشيوعية فوق صفحات بعض الجرائد المحلية،ولفتنا نظرها بالأخص إلى صحيفتين بعينهما ؛ هما جريدة تسمى « روح العصر ».وهى كما تصف نفسها اشتراكية سياسية . وملحق « العصور » الأسبوعى،وهو الذى يزعم أنه ينطق بلسان الفلاح المصرى. و نبهنا

إلى أن هاتين الجريدتين تخصصان أنهرهما لمباحث اشتراكية وشيوعية محضة ، وتستعملان الأساليب الاشتراكية والشيوعية صراحة » .

• • •

ولما رأى إسماعيل مظهر وعصابته أن أمرهم قد انكشف ، وأن الشرطة تراقب حركاتهم واجتماعاتهم ، أغلق مجلته « العصور » وتفرقت عنه جماعته ، وأنكره أصحابه ومعارفه . وكاد كامل كيلانى يفصل من وظيفته بوزارة الأوقاف بسبب ما ترجمه عن بندلى جوزى ، وبسبب اتصاله بتلك الجماعة ، لولا أنه ارتمى على أقدام بعض الكبراء ، وبذلك نجا من ضرر محقق . وقد عرفت كامل كيلانى بعد أن تجاوز مرحلة الشباب فوجدته إنسانا فاضلا ، متدينا ، شديد الإيمان بالله ، رحمه الله رحمة واسعة .

• • •

ومن الشعراء الذين نشروا بعض شعرهم فى مجلة العصور الشاعر عبد اللطيف ثابت ، ويبدو من بعض شعره أنه كان يشك فى حقيقة الأديان ، قال :

وَمَنْ يَدْرِ عَلَّ الْأَنْبِيَاءَ تَكَذَّبُوا   وَمَا الْأَصْلُ فِيمَا بَلَّغُونَا هُوَ الأَصْلُ
وَنَاضَلَنَا بِالسَّيْفِ مِنْهُمْ مُنَاضِلٌ   وَفَوْقَ الذِى قالوا لِنُوقِنَهُ سَدْلُ

• • •

وكان الزهاوى عميد الشعراء المتشككين فى عصره ، ومما نشرته له العصور :

لَمَّا جَهِلْتَ مِنَ الطَّبِيعَةِ أَمْرَهَا   وَأَقَمْتَ نَفْسَكَ فِى مَقَامِ مُعَلِّلِ
أَثْبَتَّ رَبًّا تَبْتَغِى حَلًّا بِهِ   لِلْمُشْكِلاتِ فَكانَ أَكْبَرَ مُشْكِلِ

وقدمت « العصور » فى أكتوبر سنة ١٩٢٨ قصيدة للزهاوى بقولها :

للزهاوى مبدأ معروف ، هو أن القصد المظنون وجوده فى الطبيعة ، هو من عمل الأثير المحرك لأجرام الكون ، كما أنه فى الحيوان ، ولاسيما الإنسان من عمل الكهربائية التى هى صورة من صور الأثير » .

« ويرى أن الأثير هو « الله » و « الكون » معا . وأن هناك حياة راقية عامة لخلايا الأجرام فى كيان اللانهاية ، وهى صبغة الأثير الذى « لا إله إلا هو » . وأن حيلة الحيوان والنبات هى صور ابتدائية لتلك الحياة القائمة بخلاياها من أجرام السماء . وأن الطبيعة لا تتناهى . فمن الشطط الاعتقاد بوجود خالق مدبر خارج عنها ، أو غير خارج عنها ، ولا داخل فيها ، يدبرها بحكمته البالغة تعليلا لحوادث الكون المختلفة ، وهو فى هذه الفكرة قريب جهد القرب من فكرة الذين يقولون بوحدة الوجود مجردة عن الغيبيات التى تقوم عليها الأديان » .

ومما جاء بهذه القصيدة :

قالُوا سَيَجْزِينَا عَلَى أَعْمَالِنَا مُفتِينَا
فَقُلْتُ هٰذا بَاطِلٌ مَا إِنْ يكُونُ مُمْكِنَا
هُوَ الَّذِى أَرَادَ أَنْ نُسِىءَ أَوْ أَنْ نُحْسِنَا
وَهْوَ الذِى صَيَّرَ مِنَّا مُلْحِدًا وَمُؤْمِنَا
إِذَا جَنَيْتُ مُكْرَهًا فَهَلْ أَنَا الذِى جَنَى ؟
وَهَلْ عِقَابُهُ مِنَ الْعَدْلِ الذى قَدْ أَعْلَنَا ؟
وَهَلْ لنَا إِنْ شَاءَ أَنْ نَغْوِى سِوَى أَنْ نُذْعِنَا ؟
وَهَلْ عَنَيِنَا فى حَيَاةِ الْأَرْضِ إِلا مَاعَنَى ؟
أَلَم نَكُنْ لِمَا قَضَى بِهِ مِثَالاً حَسَنَا ؟

• • •

أحدثت هذه الحركات الإلحادية رد فعل بين المسلمين . فتأسست الجمعيات الدينية لنشر الوعى الدينى ومقاومة الإلحاد . ففى سنة ١٩٢٩ تألفت فى مصر جمعية الشبان المسلمين وظهرت على أثرها جمعيات كثيرة ، منها ماهو قائم إلى اليوم ، ومنها التى اختفت لأنها تركت مهمتها التى أنشئت من أجلها واشتغلت بالشئون السياسية .

ونشطت حركة التأليف الدينى نشاطا لم يسبق له مثيل .

أما هذه الحركات الإلحادية التى ظهرت فى تركيا وفى مصر و فى غيرها من البلدان الإسلامية ، فقد انتهت إلى الإخفاق التام ، وأصبح المسلمون أكثر فهما للإسلام ، ولروح الإسلام من الأجيال السالفة .

ولقد رجع إسماعيل مظهر إلى حظيرة الإسلام . انظر إلى ما كتبه فى صحيفة « الأخبار » فى ٨ / ٩ / ١٩٦١ تحت عنوان : « الإسلام ومفهوم النظم الاجتماعية » .

« الإسلام دين جامع . أقصد بذلك أن الإسلام رسالة للبشر أجمعين ، لا لقوم دون قوم ، ولا لقبيل دون قبيل ، ولا لأبيض دون أسود ، بل دعوة شاملة للعالمين ، تقيم بين الناس العدل ، وتهيئ كل الفرص لجميع الذين تظلهم بسلطانها أن يعيشوا بكرامة آدمية . والنصوص على ذلك كثيرة متعددة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) . « سبأ » .

ثم قال : « هذا هو الإسلام ، وهاهي ذى روحه التى يقوم عليها : دين حر ، ودولة حرة » .

ثم قال : « إن الإسلام بروحه هو دين المقاربة فى فرص الحياة بين الناس ، ودين المساواة فى معنويات الحكم . فلكل من يظله الإسلام كرامة مساوية لكرامة غيره ، وله على الدولة حق الحياة بكافة معانيها ، روحية ومادية . ولا شك فى أن نظم التفارق الطبقى الصارخ الذى ورثته دولات الإسلام عن الرومان وفارس قد عطلت المعنى الأسمى الذى ينشده الإسلام لكل مجتمع إنسانى ، بلا تفرقة بين عقيدة ، أو لون ، أو جنس ، أو أى من تلك الفوارق التى تنخر الآن عظام الحضارة الحديثة » .

ومنها : إن المسلمين بعدوا عن الإسلام ، ومن ثمة بعدوا عن الحياة . لقد بعدوا عن روح الإسلام ، ولن يستعيدوا مجدهم إلا بعد أن يفهموا روح هذه الرسالة النورانية، على أنها رسالة إنسانية جعلت أصلا من أجل الإنسان » .

« . . . فالإسلام فى حقيقته رسالة بسيطة ظاهرة المعالم ، بينة الحدود ، بعيدة عن مماحكات المنطق وسرحات الباطنية والتصوف . أساس الإسلام : إله حق ، ورسول أدى رسالة ، وإنسان أديت إليه . والإنسان فى الإسلام هو المحور الذى تدور من حوله رسالة الإسلام وتعاليمه العليا » .

(انتهى)

فهرس ذيل الملل والنحل